يوميات طالب بعثة

عبد الوهاب مطاوع

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: **هذا العمل (تحويل كتاب: يوميات طالب بعثة.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع إلى صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.**
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب
انضم الى القناة

كتب أدب الرحلات للراحل
عبد الوهاب مطاوع..

يوميات طالب بعثة

عبد الوهاب مطاوع

«إني أتبع أفكاري أينما قادتني!»
الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت
(1650 – 1596)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا الكتاب

هذه صفحات كتبتها عام 1986 عن رحلة طويلة قمت بها إلى بريطانيا في أبريل عام 1977، وأقمت خلالها لأكثر من ثلاثة شهور في بيت للطلبة بقرية صغيرة، بالقرب من مدينة كارديف عاصمة مقاطعة ويلز البريطانية، للالتحاق بدورة دراسية عن الصحافة بمعهد طومسون البريطاني للصحافة.

وقد أصدرتها في عام 1986 في كتاب صغير بعنوان «مذكرات طالب بعثة».. وحين انشغلت بإعداد فصول كتابي «سائح في دنيا الله» تذكرت فجأة هذا الكتاب الصغير التي نفدت طبعته الأولى، ولم أحاول إعادة طبعه مرة أخرى ربما استشعاراً لأنه كان من تجاربي الأولى في أدب الرحلات.

وفكرت جدياً في أن أعيد كتابته من جديد لأضمه إلى كتاب «سائح في دنيا الله» وهممت بذلك فعلاً.. لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة، وفضلت أن أختار بعض فصوله وأضمها إليه كما كتبتها وقتها وبإحساس ذلك الزمان الذي سجلته فيه، بل وبأسلوبي أيضاً في الكتابة وقتها، وضممت هذه الصفحات بالفعل إلى كتابي «سائح في دنيا الله» كفصل مستقل في نهايته واخترت له عنوانا: «بريطانيا 77.. صفحات من مذكرات طالب بعثة»، ثم مرت السنوات ونفدت الطبعتان الأولى والثانية من كتاب «سائح» وبدأت في مراجعة بروفاته استعداداً لإصدار الطبعة الثالثة.. فعبرت كل فصوله ثم توقفت أمام الجزء المستقل في نهايته وأعدت قراءته.. فشعرت بحنين غريب إلى هذه الصفحات وسألت نفسي: لماذا اختزلت كتاب مذكرات طالب بعثة في هذه الصفحات.. ولماذا لم أعد إصداره ككتاب مستقل بعد ذلك أبدا..

هل خجلت من إعادة طبعه معتقدا أنه تجربة شباب في الكتابة.. ولا داعي للاحتفاء بها، ووجدتني أعاتب نفسي على إهمال إعادة طبع هذا الكتاب وأتساءل: وهل يخجل الإنسان من شبابه؟ وأليس إنتاج الكاتب الأدبي كله سلسلة متصلة الحلقات تسلم إحداها للأخرى.. وهكذا قررت إعادة إصدار هذه الصفحات، ككتاب مستقل مرة أخرى كما كان عند صدور طبعته الأولى، فإذا لاحظت اختلافاً طفيفاً في الأسلوب بين هذه الصفحات وبقية كتبي فاعلم أنه فارق الزمن.. وربما أيضا فارق الإحساس من مرحلة إلى مرحلة في رحلة العمر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة الطبعة الأولى

سأل المرحوم صالح جودت.. الأستاذ العقاد يوما: ماذا تقرأ الآن يا أستاذنا؟
فأجاب العقاد: أقرأ كتابا عن بريجيت باردو ([1])!.. فرد صالح جودت مندهشا: الأستاذ العقاد يقرأ عن بريجيت باردو؟
فقال العقاد: نعم.. فليس هناك كتاب أقرأه ولا أستفيد منه شيئاً جديداً، فحتى الكتاب التافه أستفيد من قراءته، أني تعلمت شيئا جديداً هو ما هي التفاهة؟ وكيف يكتب الكتاب التافهون؟ وفيم يفكرون؟
ولأنه ليس هناك كتاب مهما بلغت تفاهته لا يستفيد منه القارىء الذكي، فإني أدعوك لأن تقرأ هذه المذكرات لعلك تجد فيها شيئاً مفيداً فإن لم تجد فشيئا ممتعا.. فإن لم تجد.. فشيئا أفضل قليلاً. من ملل الفراغ والضياع.. فإن لم تجد شيئا من كل ذلك.. تعلمت منه الدرس الذي يتعلمه كاتب كالعقاد من قراءة الكتاب التافه، وهو معنى التفاهة! بشرط واحد هو أن تكون قارئا ذكيا كالعقاد، فالقارىء الغبي قد يقرأ الكتاب القيم فلا يستفيد منه شيئا، أما القارىء الذكي من طراز العقاد، فهو وحده الذي يستطيع أن يجد في أكثر الكتب تفاهة، شيئا أو معنى يستحق من أجله عناء قراءته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل البداية!

كنت في ذلك الحين أصدر صفحة أسبوعية في جريدة الأهرام بعنوان «الوجه الآخر» حين وقع على اختيار مدير تحرير الأهرام الراحل المرحوم محمود عبد العزيز؛ لألتحق بدراسة قصيرة للصحافة في معهد طومسون ببريطانيا، وقال لي يومها محمود عبد العزيز إن هذه الدورة بالذات مخصصة للصحفيين العرب وحدهم، لذلك فإن تجربتي في هذه الدراسة ستكون في التعامل مع صحفيين من العرب، على خلاف كل الدورات السابقة للمعهد، التي كانت تضم صحفيين من كل دول العالم الثالث من أستراليا وأمريكا الجنوبية وآسيا وأفريقيا.

قلت لنفسي: لا بأس إنها فرصة للدراسة ولمعايشة الحياة في بريطانيا لعدة شهور متصلة على خلاف الرحلات القصيرة السريعة التي قمت بها من قبل لبعض دول أوروبا. وخلال فترة انتظار السفر كنت قد قرأت الكتاب السنوي عن بريطانيا 77، الذي يحتوي على معلومات عامة عن بريطانيا، ابتداء من نظام الحكم إلى النشاط الاقتصادي إلى أسماء الوزراء إلى أسماء الصحف والمؤسسات الكبرى.. إلخ، وكنت أيضا قد قرأت ملف بريطانيا في أرشيف الأهرام كعادتي قبل السفر إلى أية دولة.

وفي صباح يوم 28 أبريل عام 77 نهضت من نومي عند الفجر، وقبلت طفلي الذي لم يكن قد أكمل عامين من عمره بعد، وودعت أسرتي وحملت حقيبتي الوحيدة وذهبت إلى المطار.

اشتريت خرطوشة سجائر، ورحت أتجول في صالة المطار ثم فجأة التقيت بصديق قديم.. أهلاً سعد، أهلاً عبد الوهاب، إلى أين؟ لندن.. وأنت؟ أثينا.. عمل لشركة القطاع العام التي تعمل بها؟ أية شركة؟.. لقد استقلت منها من زمان والآن أعمل بالاستيراد والتصدير وأكسب آلاف الجنيهات كل شهر، تسامرنا قليلاً ومر الوقت سريعاً. ثم نودي على ركاب الطائرة.. فودعت صديقي واتجهت إلى باب الخروج. في الطابور كانت تقف أمامي فتاة أوروبية شعرها قصير جدا وترتدي قميصا رجاليا وشكلها رقيق وإن كان يقترب كثيراً من شكل الولد الشقي.

كنت لم أجد وقتها تذكرة طيران على رحلة جوية مباشرة إلى لندن فحجزت مكانا على الطائرة المسافرة إلى روما على أن أغير الطائرة فيها وأتوجه إلى لندن.

تسلم موظف شركة الطيران الإيطالية ـ وكان ثقيل الدم – جواز سفر الولد الشقي وطلب فتح حقيبتها تنفيذا لإجراءات الأمن، ثم أعطاها الجواز، وتحركت الفتاة في طريقها إلى السيارة وفجأة خطر له أن يوجه لها أسخف

سؤال يمكن أن يوجهه إلى فتاة، فقال لها وهو يبتسم ابتسامة سمجة كأنما تذكر سؤالاً هاماً: هيه.. آر يو بوي؟ أور جيرل؟ أي هل أنت ولد أم بنت؟
ولو أردت أن تعرف في لحظات الفرق بين رقة الطبع والجلافة، تستطيع أن تعرفه بسرعة وأنت ترقب هذا المشهد السخيف، فقد أحمر وجه الفتاة وأحست بغضب هائل، لكنها لم تفعل شيئا أكثر من أنها تجاهلت التساؤل السخيف وتوجهت إلى السيارة التي تحمل الركاب إلى الطائرة. وحين جاء دوري أمامه، كنت أحمل له بلا سابق معرفة كل كراهية الدنيا للإيلام الذي تسبب فيه بغير أن يدري لهذه الفتاة.
دخلت الطائرة من باب المقدمة فمررت في طريقي إلى مقعدي بوزير الثقافة وقتها جالساً في أول صف وغارقا في نوم هادىء، لو كان مستيقظاً لحييته فلقد كان نقيباً للصحفيين لكنه كان غارقاً في النوم، والنوم في الطائرة إن كنت لا تعرف من علامات الوجاهة! لأنه يعني أنك معتاد على السفر بالطائرات وأنك مسؤول كبير أو رجل أعمال مشغول بجلائل الأمور، لدرجة أنك تعتبر رحلة الطائرة أجازة ثمينة تنتهي بوصولك إلى المطار وخروجك لممارسة جلائل الأعمال مرة أخرى.
وفي مقعدي في الطائرة أصغيت بقلب سعيد لصوت المضيفة التي طلبت ربط الأحزمة ثم تحركت الطائرة في طريقها المرسوم. لست أذكر مرة ركبت فيها الطائرة ولم ينخلع فيها قلبي قليلاً لحظة إقلاعها وبالذات في اللحظة التي تفارق فيها عجلات الطائرة أرض الممر. وأعتقد أني لست وحدي في هذا الإحساس، كذلك يندر أن أركب الطائرة ولا أتذكر صديقاً صحفياً قديماً يقيم الآن في باريس. فقد سافرت معه مرة ضمن وفد يمثل نقابة الصحفيين إلى رومانيا قبيل زيارة رئيسها الأسبق شاوشيسكو لمصر سنة 72. وركبنا طائرة الخطوط الرومانية وكانت وقتها طائرة متواضعة تعمل بالمراوح، فكانت فريسة سهلة طوال الرحلة للمطبات الهوائية، وكثر إعلان الطوارىء وإضاءة لوحة ممنوع التدخين.
وكان هذا الصديق مزيجاً غريباً من الجرأة والجسارة.. والخوف!! فقد اشترك في عمليات اغتيال عديدة للجنود البريطانيين خلال معركة الكفاح ضد الاحتلال الإنجليزي، واشترك في بعض عمليات المقاومة الفلسطينية في الأردن سنة 1968، ومع كل ذلك فهو من أكثر الناس خوفاً من ركوب الطائرات، فكان لدهشتي يرتجف حين تهتز الطائرة ويتمتم بآيات القرآن الكريم طوال الرحلة ويصفر وجهه.. وترتطم أسنانه من الرعب كلما أضيئت لوحة ممنوع التدخين وربط الأحزمة!
تناولت إفطار الطائرة وبدأت أغالب النوم، وصحوت والطائرة تقترب من روما، ومضيفة الطائرة توزع علينا استمارات الجوازات لنملأها وتنبهت في هذه اللحظة فقط إلى جاري الشاب وهو حائر كيف يملأ استمارته، واستجبت على الفور لنظراته المترددة وعرضت عليه مساعدتي، وكتبت له بياناتها

وتعارفنا، فعرفت أنه شاب مصري حاصل على الثانوية العامة ويسافر إلى لندن ليبحث عن عمل هناك، وكانت لندن في تلك السنوات مقصدا لشباب كثيرين مثله.. يدخلونها بتأشيرة سياحية، وتنتهي مدة إقامتهم فيعملون بالأعمال الصغيرة كمهنة صبي المطبخ أي «كيتشين بوي» ويعيشون حياة خائفة تؤرقهم فيها مطاردة رجل البوليس لهم بعد انتهاء مدة الإقامة.
نزلت في روما وعرفت موعد طائرة لندن وساعدت «كيتشين بوي» المستقبل في إجراء الحجز إلى لندن، وركبت الطائرة.. وهو يطاردني خوفاً من أن أتوه منه ويفقدني في الزحام. وفي الطائرة من روما إلى لندن أيضاً ساعدته في ملء الاستمارات، ثم أسر بمخاوفه من أن يفشل في الحصول على تأشيرة دخول إلى لندن، فبريطانيا هي الدولة الوحيدة في العالم - في حدود معلوماتي - التي لا تعتبر تأشيرة الدخول التي تحصل عليها من سفارتها بأي مكان تأشيرة دخول نهائياً لبلادها، وتخضعك حين تصل إلى مطار لندن لاستجواب جديد من ضابط الجوازات في المطار يسألك خلاله عن غرضك من الزيارة ومدة الإقامة والنقود التي تحملها.. ويملك أن يلغي تأشيرة دخولك ويحتجزك في المطار حتى يعيدك إلى بلدك على الطائرة التالية. وقد قال لي «الكيتشين بوي» إنه يتمنى أن يحصل على تأشيرة دخول لمدة 6 شهور ليتمكن خلالها من ترتيب أموره والبحث عن عمل، وأنه لم يزر لندن من قبل ولا يعرف كيف يجد طريقه بها. لكنه يحمل عنوان بعض أصدقائه الذين سبقوه إلى العمل في لندن وسيحاول الوصول إليهم.
اقتربت الطائرة من لندن وأطللتُ من النافذة لأرى صورتها لأول مرة، فكانت فعلاً صورة رائعة لو أردت أن أصورها لقلت لك إنك ترى من نافذة الطائرة سجادة جميلة مكونة من لونين فقط هما الأحمر والأخضر، الأخضر لون الحدائق والمزارع التي تنتشر في كل مكان والأحمر هو لون سقوف البيوت الإنجليزية الشهيرة.
نزلت من الطائرة ومشيت في ممرات المطار ومن خلفي رفيق السفر، واكتشفت أن هناك ثلاثة ممرات للخروج من الجوازات، ممر للمواطنين الإنجليز، وهؤلاء تستقبلهم ابتسامة ونظرة على الجواز وهو مغلق، ثم مع السلامة. وممر للقادمين من دول الكومنولث، وهؤلاء أيضا لا تستغرق إجراءات جوازاتهم لحظات، ثم ممر ثالث مكتوب عليه «جوازات السفر الأخرى». أي جوازات أمثالنا من غير المحظوظين، وفيه وجدت طابوراً طويلاً، ينظمه رجل بوليس وفي انتظارهم 10 ضباط جوازات، يجلس كل منهم إلى مائدة عالية صغيرة تحمل رقما.. وكلما خلا واحد منهم من العمل، سمح رجل البوليس لأول الطابور بالدخول ووجهه إلى رقم ضابط الجوازات الخالي.
قال لي رجل البوليس: رقم 4، فاتجهت إليه ودفعت إليه جواز سفري فتناوله بوجه غير معبر، ثم سألني بلهجة رسمية:
_ كم ستبقى من الوقت في بريطانيا؟

_ 3 شهور.
_ ماذا ستصنع في بريطانيا؟
_ سألتحق بدورة دراسية بمعهد طومسون للصحافة.
فختم جواز السفر ومد يده إليّ به في صمت وانصرفت. خلال حواري معه كنت ألمح رفيق السفر أمام ضابط الجوازات المجاور لي وأتخيل حاله وأدعو الله أن يوفقه في محنته، وخرجت من دائرة الجوازات إلى خارج المطار في لحظات، وعلى باب المطار التقيت «بالكيتشين بوي» ووجدته حزينا فقال لي: طلبت من ضابط الجوازات إقامة 6 شهور فأعطاني إقامة لـ 3 شهور فقط، فنظرت في هذه اللحظة فقط إلى خاتم الجوازات على جواز سفري، فوجدته قد أعطاني إقامة لـ 6 شهور وتعجبت لأحوال الدنيا التي لا تعطي المحتاج أبدا، فقد طلبت من ضابط الجوازات إقامة لمدة 3 شهور فأعطاني 6 شهور وطلب «الكيتشين بوي» 6 شهور فأعطاه ثلاثة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الطريق!

قبل أن أركب الطائرة كنت قد تلقيت رسالة من المعهد ترحب بى طالباً في دورته الدراسية الجديدة، وتقول كلماتها إنهم - أي إدارة المعهد - «يتطلعون» بشوق إلى موعد وصولي إلى إنجلترا ليسعدوا باشتراكي في هذه الدراسة الجديدة، ولن تفهم مدى الأدب والرقة في هذه الكلمات إلا إذا عرفت أن هذه الدراسة منحة دراسية مجانية يتلقى الصحفى فيها دراسة متقدمة عن الصحافة.. ويقيم خلالها في بيت من بيوت الطلبة إقامة كاملة على نفقة المعهد، ويحصل خلالها على نفقات الانتقال، أو مبلغ بسيط كل أسبوع «للأشياء الصغيرة» كما يقول الإنجليز، ومع ذلك تقول رسالة مدير المعهد لي ولكل عضو بالطبع في الدراسة الجديدة إنهم «يتطلعون بشوق لموعد وصولي»

وبعد هذه المقدمة المهذبة تحدد لي الرسالة بدقة شديدة كل الخطوات التي ينبغي عليّ أن أتبعها لكي أصل إلى فندق «بلومزبري» في لندن حيث يتجمع الصحفيون القادمون من أنحاء مختلفة، تمهيداً للتحرك إلى مدينة «كارديف» عاصمة مقاطعة ويلز حيث سنتلقى دراستنا.

قالت رسالة مدير المعهد إني سأخرج من المطار فأجد سيارات الأتوبيس العامة على باب المطار مباشرة، وإني أستطيع أن أركب إحدى هذه السيارات بتذكرة ثمنها كذا إلى محطة السكة الحديد الرئيسية فيكتوريا في قلب لندن، وهناك أستطيع أن ألجأ إلى مكتب المجلس البريطاني للتعليم الذي يهتم بشئون الطلبة الوافدين.. وأطلب إليهم إرشادي إلى الفندق، فيقوم مندوب خاص بتوصيلي بسيارة أجرة على نفقة المجلس البريطاني إلى الفندق دون سابق معرفة لأني غريب وقادم للدراسة في بلاد شكسبير، كما أستطيع أيضاً أن أركب سيارة أجرة حددت لي الرسالة مقدماً أجرها لتحملني إلى الفندق.

وصلت إلى محطة فيكتوريا حوالي الساعة التاسعة مساء، وفجأة اكتشفت شيئاً غريباً، تعجبت من نفسي كيف لم أتنبه له من بداية الأمر، اكتشفت أن ساعتى تقترب من التاسعة مساء والنهار الأبيض مازال يملأ سماء لندن.. فمتى يجيء الليل إذن! لم أعرف جواباً عن سؤالي في تلك اللحظة، لكني عرفت فيما بعد أن نهار لندن في مثل هذه الشهور من كل سنة ابتداء من أواخر أبريل وحتى أوائل الشتاء، يبدأ قرب الساعة الرابعة والنصف صباحا ويمتد حتى قرب العاشرة مساء، وأنه مقابل هذا النهار الصريح الطويل، يأتى الشتاء فتنخفض ساعات النهار.. ويطول الليل حتى يبدأ حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ويمتد حتى الصباح التالي، وأحيانًا لا يطلع نهائياً في الشتاء

فيحول الضباب دون تسرب الضوء إلى الشوارع وتخرج إلى الشارع في الصباح، وتذهب إلى عملك في عتمة شبيهة بنغبشة أول الليل في مصر.
وصل الأتوبيس إلى محطة « فيكتوريا » وهي قلب منطقة مواصلات مدينة لندن، فلم أحاول أن أبحث عن مكتب مجلس التعليم البريطاني واتجهت إلى باب الخروج وركبت سيارة الأجرة.. ولاحظت بدهشة أن السائق العجوز قد نزل بتلقائية وحمل حقيبتي ووضعها في مكان مخصص للحقائب بجوار مقعد السائق ثم عاد إلى مكانه، وقلت له اسم الفندق وعنوانه فأدار موتور السيارة وانطلق، ورحت أتفرج على لندن التي أراها لأول مرة في حياتي من نوافذ سيارة الأجرة.. وتنبهت فجأة على صوت السائق يقول: «بلومز بري هوتيل» يا سيدي. ثم ينزل مرة أخرى ويحمل حقيبتي، وأسأله عن الأجرة فيجيب 140 قرشا ([2]) يا سيدي! تماماً كما حددت لي تعليمات رسالة مدير المعهد التي تلقيتها في القاهرة، وأدخل الفندق وأتجه إلى الاستقبال، وأقول لموظفة قسم الاستقبال كما حددت لي رسالة التعليمات: مساء الخير، إنني واحد من فريق معهد طومسون للصحافة، فتبتسم في وجهي وتقول: تكرم بملء هذه الاستمارة، وخلال انشغالي في تسجيل بياناتها أسمع كلمات بالعربية تنطلق من جواري وأختلس النظر، فأرى وجوها عربية تملأ الاستمارة وأدرك أنهم زملاء الدراسة الجدد.
وخلال وقوفي أمام قسم الاستقبال، جاء مندوب مجلس التعليم البريطاني بزميلين، سلمهما إلى موظفة الاستقبال، ثم طلب منها ورقة تفيد أنه جاء إليها بشابين عربيين قادمين للالتحاق بدراسة للصحافة وأخذها وانصرف.
إذ لو كانا سائحين قادمين للسياحة، وتأكد مندوب المجلس من ذلك من موظفة الفندق لطالبهما بأجر سيارة الأجرة في الذهاب والعودة ولربما شكاهما إلى البوليس، فخدمات المجلس البريطاني للتعليم لطالبي العلم فقط لا لطالبي المتعة!
لم أكد أتم تسجيل بياناتي بالفندق حتى وجدت شخصاً يقترب مني ويسألني بأدب: هل أنت أحد أعضاء فريق طومسون، فأجيب بالإيجاب فيمد يده يصافحني ويقول: أنا إريك فيرث الأستاذ بالمعهد، وأنت حر إلى صباح الغد، تستطيع أن تتناول عشاءك في مطعم الفندق ثم نلتقي في البهو هنا في الثامنة صباحا، وسيتحرك الأتوبيس إلى كارديف في الثامنة والنصف صباحا، إلى اللقاء.
ها هي لندن إذن بعد طول اشتياق، لكني أيضاً في أشد شوق للنوم ولا مفر من تأجيل تعرفي بها إلى وقت آخر فاستسلمت للنوم.
وفي صباح اليوم التالي تجمعنا في بهو الفندق بعد تناول الإفطار. وحانت ساعة الرحيل، فغادرنا الفندق لنركب سيارة أتوبيس كبيرة تقف أمام بابه.

وكنا 7 فقط -من أعضاء الدورة ومعنا أستاذ المعهد إيريك فيرث وسائق الأتوبيس.
وبدأ الأتوبيس رحلته إلى كارديف ماراً بشوارع لندن، فسار بنا تحت المطر وفي جو ضبابي غائم حوالي أربع ساعات. وودعنا في منتصف الطريق مستر فيرث الذي نزل في مدينته الصغيرة على الطريق ليقضي أجازة السبت والأحد مع أمه في بيتها الريفي، وواصلنا الرحلة وحدنا حتى قرية « بنارث » في ضواحي كارديف حيث يقع «الإنترناشيونال هاوس» وهو البيت الذي سنقيم فيه طوال مدة الدراسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في البيت العالمي

توقف الأتوبيس أمام الإنترناشيونال هاوس والمطر الخفيف مازال يتساقط من السماء كأنه يحتفل بوصولنا، ووجدنا على باب المنزل شخصاً له لحية صغيرة، حيانا بحرارة وصافحنا وعرفنا بنفسه.. إنه رولاندز مدير المعهد جاء يستقبلنا بنفسه. دخلنا قاعة البيت وجاء مدير البيت مستر «فيلد» أو مستر «غيظ» كما أطلقنا عليه من اللحظة الأولى كترجمة حرفية لاسمه. وكانت قاعة الدور الأرضي من البيت مزدحمة بالرجال والنساء في ملابس السهرة، ولم أفهم على الفور هذا الجمع حتى شاهدت بينهم عروساً وعريساً بملابس الزفاف الإنجليزية التقليدية، وفهمت أنها حفلة زفاف، تقام في قاعة البيت مقابل إيجار رمزي، وأن العريس والعروس سيمضيان أيام العسل الأولى في الإنترناشيونال هاوس، واعتبرنا ذلك فألا حسنًا!

وزع علينا مستر «غيط» مفاتيح غرفنا ومفاتيح الباب الخارجي للبيت وأعلننا أن الباب الأمامي يغلق في العاشرة مساء.. وأن الباب الخلفي يغلق في العاشرة والربع، وأن من شاء أن يتأخر في الخارج إلى ما بعد ذلك له أن يعود في أي وقت يشاء.. ويستعمل مفتاح الباب الخارجي، ويستطيع أن يشاهد برامج التليفزيون في قاعة التليفزيون حتى نهاية الإرسال في الواحدة صباحا، لكنه ممنوع إضاءة صالة الدور الأرضي، ولعب تنس الطاولة بعد العاشرة مساء، فالبيت يقيم به طلبة مشغولون بالدراسة وينامون مبكراً.. وانصرف مستر «فيلد» بعد أن صحبنا إلى غرفنا واجتمع بنا مستر رولاندز ليسأل عن مطالبنا ويبلغنا التعليمات:

اليوم وغداً إجازة.. تستطيعون التجول في «بنارث» والتمتع بساحل البحر الذي يطل عليه البيت.. إذا شكا أحدكم من أي مرض عليه فقط أن يبلغ مدير البيت مستر فيلد.. وإذا احتجتم إلى أي مساعدة اتصلوا به على الفور، سأحضر إليكم الساعة التاسعة صباح الاثنين لأصحبكم إلى مقر المعهد في كارديف لنبدأ الدراسة، أرجو أن تستمتعوا بإقامتكم بيننا. وقد طلب مني مدير البيت أن ألفت نظركم إلى أن هذا البيت ترعاه الكنيسة، وأنه مخصص لإقامة طلبة الدراسات العليا وأنه بالتالي لا يريد أن «يرى» - وغمز بعينه - أية زجاجات داخل البيت! وضحك رولاندز وضحكنا معه وودعنا وانصرف كل منا إلى غرفته.. وأغلقت باب غرفتي على نفسي وقبل أن أفتح حقيبتي أزحت الستار عن النافذة العريضة ووقفت أتأمل الصورة البديعة التي رسمتها الطبيعة أمامي للبيوت الإنجليزية التقليدية التي لا ترتفع أكثر من دورين بسقوفها المغطاة بالقرميد الأحمر والمنحدرة من الجانبين والخضرة في كل مكان.. تماما كالصورة التي تخيلتها من قراءتي للروايات الإنجليزية ورسمتها في خيالي للريف الإنجليزي الشهير.

بعد ساعات نزلت إلى الدور الأرضي لأتناول طعام العشاء فكانت أول تجربة لي في التعامل مع الطعام البريطاني.. وآه من الطعام الإنجليزي الصميم، الذي يقدمه بيت صغير في أعماق قرية صغيرة بجوار كارديف! فالسائح يستطيع دائماً أن يستسيغ طعام الفنادق الكبرى في أي مكان من العالم؛ لأنها تتعامل أساسا مع الغرباء فتراعى اختلاف الأذواق والطباع.. وتقدم نوعا من الطعام يمكن أن يسمى بالطعام العالمي الذي يقبله كل إنسان مهما كانت جنسيته. لكن المشكلة الحقيقية في مطاعم القرى الصغيرة وبيوت الطلبة التي تمثل طبيعة المطبخ الإنجليزي!
أمضيت يومي السبت والأحد.. أرتب ملابسي.. وأوراقي في غرفتي وأتجول في «الإنترناشيونال هاوس» أتعرف على معالمه وأتطلع إلى رفاق الرحلة بقلب فُطِر على أن يبدأ الآخرين بالحب والثقة إلى أن يتلقى منهم الوخزة تلو الوخزة فيجفل من بعضهم، فإذا أجفل بعد طول صبر، كان من الصعب عليه أن يفتح أبوابه لنفس الأشخاص من جديد.
واكتشفت أن في الصالة السفلى التي شهدت حفل الزفاف في اليوم الأول مائدة لتنس الطاولة.. ورأيت عددا الطلبة يخرجون من قاعة الطعام فيتسابقون للوصول إلى المائدة ليلعبوا.. فرحت أرقبهم وأنتظر الفرصة لمشاركتهم لعبهم فهذه هي الرياضة الوحيدة التي أعرفها.. وكلما أقترب مني طالب بادرته بالتحية فلاحظت بعد قليل أن الأوروبيين منهم والبريطانيين خاصة يجيبون بتحفظ، أما الأفارقة فيجيبون بحرارة. وتعلمت من ذلك ومن تجارب أخرى على مدى الشهور التي عشتها في بريطانيا أن البريطانيين في أعماقهم لايرحبون بالأجانب.. فاستنفر فيّ ذلك طبعي القديم الذي اكتسبته من تجارب الحياة، وهو أن أتحفظ مع من يبدو متحفظاً تجاه الآخرين وألا أسعى إلى صداقته أبداً.
في مساء اليوم الأول دق باب غرفتي زميل شاب.. ودعاني للخروج معه ومع عدد من زملاء الدورة إلى البلدة القريبة بنارث للتعرف عليها، فاستجبت سريعاً، وخرجنا نلتمس الطريق إلى بنارث التي تقع على بعد حوالي 3 كيلو متوات من الإنترناشيونال هاوس.. وسرنا على الأقدام لمسافة نصف ساعة إلى أن وصلنا إليها.. وهي بلدة صغيرة جداً من ضواحي كارديف. وبعد جولة في شوارعها التي لا تزيد عن 4 أو 5 شوارع نظيفة، اتخذنا طريقنا بناء على نصيحة بعض الزملاء الأفارقة من سكان الإنترناشيونال هاوس إلى مشرب أو مقهى «الريلواي» أو السكة الحديد الذي يطل على محطة القطار في بنارث.
وفي صباح يوم الاثنين جاءنا مستر رولاندز ليصطحب البعض منا في سيارته إلى مقر المعهد في كارديف.. وليشرح لمن لا تتسع لهم السيارة كيفية الوصول إلى هناك بالأتوبيس.. وكنت ممن لم تتسع لهم سيارته فاتجهت مع زملائي إلى الشارع المجاور ننتظر سيارة الأتوبيس التي جاءت في موعدها بالضبط.. وبعد 20 دقيقة كنا في كارديف حيث وجدنا رولاندز وزملاءنا

ينتظرونا في المحطة الرئيسية للأتوبيس. قادنا رولاندر بنشاط وحيوية إلى مبنى إداري يقع في مواجهة المحطة. وتبعناه متفائلين إلى قاعة في الدور الثاني من المبنى، تضم 12 مكتباً صغيراً على شكل نصف دائرة تتجه إلى منصة، عليها مكبر صوت وجهاز عرض صغير للشرائح وخلفها سبورة خضراء اللون.
وبدأ يومنا الأول في الدورة الدراسية للصحافة بمعهد طومسون. استغرقت الإجراءات الإدارية الساعات الأولى فوزع علينا رولاندز لوحات صغيرة تحمل اسم كل منا لوضعها على مكتبه خلال الدورة، ثم وزع علينا «معاطف» قديمة من ممتلكات المعهد؛ لكي نستخدمها خلال فترة الدورة ثم نعيدها إلى إدارة المعهد بعد انتهاء الدراسة.
وخلال الساعات الأولى من يومنا الأول، كانت سكرتيرة المعهد قد قامت باستخراج اشتراكات لنا في الأتوبيس بين كارديف وبنارث لمدة 3 شهور ثم جاءت بالاشتراكات إلى رولاندز ووزعها علينا سعيداً.. وأجاب عن كل أسئلتنا وأبدى استعداده لمساعدة كل من يحتاج إلى مساعدة في أي مجال، وكان بين الدارسين ثلاثة من الزملاء العرب يستعدون لاستقدام أسرهم للإقامة معهم في كارديف. وطلبوا من رولاندز أن يساعدهم في استئجار بيوت للإقامة فيها خلال هذه الفترة فوعدهم بالمساعدة، وتم ذلك فعلاً خلال أيام معدودة.. وانتهت إجراءات المعيشة واستقر كل شيء في مكانه.
وآن لنا أن نبدأ المهمة التي جئنا من أجلها.. فبدأ رولاندز يلقى علينا أولى محاضراته عن الصحافة الإنجليزية. وبعد رولاندز تتابع المحاضرون، وعرفنا أن أساتذة المعهد الأساسيين ثلاثة رولاندز وهو «ويلشي» أي من أبناء مقاطعة ويلز، وبراون وهو إيرلندي، وإيريك فيرث وهو الإنجليزي الوحيد بينهم. كما عرفنا أن المعهد يستعين بمحاضرين من الخارج لإلقاء محاضرات في فروع أخرى من علم الإعلام والاتصال.
واكتشفنا بذلك أن هيئة التدريس في المعهد تضم ممثلين لمعظم مقاطعات بريطانيا العظمى.. إنجلترا وويلز وأيرلندا الشمالية فلم يكن ينقصنا إلا أستاذ من أسكتلندا ليكتمل تمثيل مقاطعات بريطانيا! وفي الحقيقة فإن سلوك كل من الأساتذة الثلاثة كان يعكس إلى حد كبير الاختلافات بين هذه الشعوب في الهيئة والشكل والمزاج النفسي!.. فرولاندز الويلزي أو الويلشي دافىء المشاعر مقبل على الحياة وعلى الأغراب وشكله «ويلشى» فعلاً بذقنه المدببة وتقاطيع وجهه المختلفة عن وجوه الإنجليز، وبراون الأيرلندي ملتهب المشاعر نوعا ما.. وسليط اللسان ومتأجج دائما بالسخط على كل شيء، وخاصة رولاندز الذي يسلقه بلسانه معنا ويتهمه بالبخل وسوء الإدارة!
أما إيرك فيرث الإنجليزي فهو متحفظ ويفضل أن يترك مسافة بينه وبين الدارسين في الدورة، ويتصور أنه أستاذ وأن مستمعيه طلبة صغار.. ويتعامل معهم على هذا الأساس، إلى أن يصطدم ببعضهم ويذكره مدير المعهد بأنه

يحاضر صحفيين محترفين لا طلبة صغار السن فيفيق إلى نفسه.. ويحاول أن يصلح خطأه وأن يكتسب ود الدارسين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبدأت الدراسة

انتظمت حياتنا في البيت العالمي وفي الدراسة بمعهد طومسون. واكتشفنا أن مستر «غيط» قد خصص لنا الدور الخامس من البيت فلايقيم به سوانا، واكتشفنا أيضاً أن في الدور حمامين ومطبخا فتفاهمنا سريعاً على أن نخصص أحد الحمامين لاستعمال السيدات.. والآخر لنا، ولم يكن بين أعضاء هذه الدورة الدراسية سوى فتاتين فقط إحداهما سودانية، وتقيم معنا في الدور نفسه، والأخرى مصرية تعمل بصحيفة الأخبار وتقيم في الدور الثالث، فلم يكن هناك مفر من التنازل عن أحد الحمامين لاستعمال الصحفية السودانية وزائراتها من طالبات البيت. وكتبنا على ورقة بالإنجليزية «للسيدات فقط» ولصقناها على باب الحمام.

وأصبح يومي يبدأ بجرس الإيقاظ في السابعة صباحا فأنهض نشيطا على غير العادة، ثم يدوي جرس الإنذار مرة أخرى بعد نصف ساعة ليدعونا للإفطار وأنزل إلى الدور الأرضي.

وفي قاعة الإفطار أسحب صينية من المائدة الجانبية ثم أقف في الطابور إلى أن يأتي دوري أمام نافذة المطبخ لأتسلم أطباق الإفطار.. وكان دائماً إفطاراً إنجليزياً تقليدياً، طبق من البيض المقلي مع «جامبون» أو سجق، اكتشفت من اليوم الأول أنهما من لحم الخنزير فعزفت عنهما واكتفيت أحياناً بالبيض والجبن الرومي والشاي، ولم يغب ذلك عن الفتاة التي تقدم لنا الطعام، فأصبحت تقدم لي البيض وحده بعد أيام من انتظامي في الإقامة في البيت.

وعقب الإفطار أعود إلى غرفتي لأرتدي ملابسي الثقيلة استعدادا للخروج، ثم نتجمع أمام البيت لنمضي معا إلى الشارع الجانبي لننتظر الأتوبيس، الذي كان يصل دائما في التاسعة و 10 دقائق خاليا ونكون نحن أول ركابه، ثم يحملنا إلى كارديف لنصل إليها في التاسعة و 25 دقيقة.. ونكتشف أن أمامنا 20 دقيقة قبل أن تبدأ الدراسة فنمضيها غالبا في مقصف محطة الأتوبيس.. ثم ندخل قاعة الدراسة لتبدأ المحاضرة الأولى في التاسعة و45 دقيقة بالضبط!.

وخلال الدراسة كلها لم يتأخر الأتوبيس عن موعده يوماً.. ولم يتأخر موعد وصولنا إلى كارديف مرة.. ولم يتأخر موعد المحاضرة الأولى لأي سبب من الأسباب، كما لم تتغير بقية طقوس اليوم كله.. ففي العاشرة والنصف كنا نسمع صوت عجلات عربة ترولي صغيرة، تدفعها أمامها سيدة إنجليزية عجوز ترتدي معطفا أبيض فوق ملابسها فتقدم القهوة إلى المحاضر أولا.. ثم تطوف على مكاتبنا لتسأل كلا منا: كيف تريد قهوتك باللبن أم سادة؟ ثم تقدم لنا القهوة. وبعد 3 أو 4 أيام لم تعد تسأل أحدا وتقدم له ما يريد بالضبط، ثم تخرج بعد دقائق فلا نراها بعد ذلك إلا في الساعة الثالثة والنصف، حين تعود بعربتها مرة أخرى لتقدم لنا الشاي.

كانت سيدة عجوزاً فوق الستين، ولكن حيويتها وإقبالها على الحياة وابتسامتها الدائمة كانت تلفت النظر.. وكنت أظنها إحدى موظفات المعهد إلى أن عرفت أنها ربة بيت تساعد نفسها وأسرتها بهذا العمل.. وأن المعهد متعاقد معها على تقديم القهوة والشاي فقط في هذين الموعدين.. وأنها تؤدي المهمة نفسها لعدة شركات أخرى تعمل في المبنى نفسه، ثم تعود إلى بيتها لترعى زوجها.

وكنا نستمع إلى 3 محاضرات في الصباح، ثم ننصرف إلى الغداء في الثانية عشرة والنصف فنغادر المبنى الذي يقع فيه المعهد لندخل المبنى المجاور له، وهو مبنى الصحيفة المحلية في كارديف، وتملكها أيضا مؤسسة طومسون للصحافة، فنصعد إلى الدور الأخير من المبنى، ونتناول طعام الغداء في مطعم الجريدة مع محرري الجريدة ورئيس تحريرها.

وبعد الغداء كانت أمامنا ساعة كاملة نستطيع أن نتحرك فيها بحرية إلى أن يأتي موعد استئناف الدراسة في الساعة الثانية بعد الظهر، وكانت هذه الساعة هي متعتي الحقيقية التي أتجول خلالها في شوارع المدينة.. وأحتسي القهوة في أحد محلاتها وأتفرج على الناس والشوارع والمحلات.. وبعد أيام قليلة كنت قد عرفت الشوارع المحيطة بالمعهد.. واخترت لنفسي مشرباً أتجه إليه كل يوم لأشرب الشاي وأقرأ الصحيفة المحلية أو كتابا من الكتب التي حملتها معي، إلى أن يحين موعد الدراسة فأعود إلى قاعة الدراسة لنستمع إلى محاضرتين أخريين.

وكان رفيقي الذي يبدد وحشتي دائماً في هذه الساعة هو أدب نجيب محفوظ، ثم تنتهي الدراسة في الرابعة و 45 دقيقة، ويحملنا الأتوبيس إلى البيت العالمي في بنارث بعد الخامسة فنتناول طعام العشاء في السادسة، وبعد العشاء نلعب تنس الطاولة بعض الوقت ونقرأ أوراق الدراسة، ثم نرتدي ملابسنا من جديد لنخرج إلى مشرب السكة الحديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

موقعة كارديف

شهدت قاعة الدراسة بمعهد طومسون للصحافة في كارديف حادثا غريبا لم تنمح ذكراه من مخيلتي حتى الآن، بل وكثيرا ما تذكرته فعجبت من حالنا وفهمت بعض أسباب متاعبنا وتمزقنا! وقد وقع هذا الحادث الذي أسميته فيما بعد بـ «موقعة كارديف» في أحد أيام الشهر الأول من دراستنا بالمعهد، فقد كانت المحاضرة مخصصة لدراسة فن المؤتمر الصحفي، وكيفية التعامل معه كصحفيين محترفين وأي نوع من الأسئلة يوجه للمسؤول الذي يعقد مؤتمرا.. إلخ.

وبعد دراسة نظرية، أعلن الأستاذ براون أنه سيجري الآن تجربة عملية أمامنا لمؤتمر صحفي وهمي، ليرى كيف سنطبق فيه ما تعلمناه في المحاضرة، واصطحبنا من قاعة الدرس إلى الصالون الصغير الملحق بقاعة الدراسة، ودعا طالباً سودانياً يحضر للدكتوراه في جامعة كارديف، ويقوم ببعض أعمال الترجمة للمعهد، وكان لسوء حظه في مقر المعهد في تلك اللحظة ليقدم بعض ترجماته، فرجاه بروان أن يساعده في عقد تجربة المؤتمر الصحفي، بأن يمثل دور المسؤول الذي نحاصره بأسئلتنا، وقبل طالب الدكتوراه عن طيب خاطر أن يقدم هذه الخدمة لنا، وجلس على مقعد في الصالون، والتففنا حوله وأعلن بروان أن «مستر مجيد» أي الطالب السوداني هو الآن وزير خارجية دولة عربية كان وزير خارجيتها يزور بريطانيا وقتها وأن علينا أن نتخيل أننا في انتظاره بقاعة كبار الزوار بمطار هيثرو حيث سيعقد لنا مؤتمراً صحفياً قصيراً.

وتأهبنا جميعاً للعمل وابتسم «وزير الخارجية» وقال بالإنجليزية: إني على استعداد للإجابة عن أسئلتكم! فانهالت عليه أسئلتنا وهو يجيب برزانة وتعقل، ثم فجأة سأله أحدنا سؤالا حول أحد نزاعاتنا العربية التي كانت مثارة في ذلك الوقت، فأجاب مستر حفيظ بما رآه مناسباً للرد على السؤال، فإذا بالصحفي موجه السؤال ينسى أننا في مؤتمر صحفي تمثيلي، وأننا نلعب أدوار صحفيين بريطانيين في مطار لندن، ويندفع في مناقشة عصبية يرد خلالها على إجابة المسؤول «ويفندها» من وجهة نظر بلاده التي كانت طرفا في هذا النزاع! وإذا بزميل ثان يشترك في المناقشة مفندا رأى زميله الأول وموضحاً النيات والأغراض التي يخفيها وراء رأيه! وإذا بزميل ثالث يقفز إلى حومة الوغى ليشد أزر زميله الأول، فلا يتقاعس زميل رابع عن أن يهب لنجدة الزميل الثاني فلم تلبث الدائرة أن اتسعت حتى شملتنا جميعا.

وكنا أحد عشر دارساً فاشتبكنا على الفور في مشادات كلامية ثنائية وثلاثية، ولم تسعف الإنجليزية بعضنا فركلها جانبا، وانطلق يناقش ويبرهن ويحلل بالعربية، وفرقعت الشعارات في سماء الغرفة الملبدة بسحابات الدخان

وتبودلت الاتهامات، واحتقنت الوجوه، وكل ذلك ووزير الخارجية المهذب ينظر إلينا آسفاً. أما براون فلقد كان منظره وهو ينظر إلينا محاولاً أن يفهم ماذا جرى للمؤتمر الذي نظمه، شيئاً يستحق المشاهدة بالفعل! ثم تدخل أخيرا لكي يعلن انتهاء المؤتمر.. أو انتهاء المهزلة بمعنى أصح، وصرف طالب الدكتوراه مشكورا وعاد بنا إلى قاعة الدرس، وجلس على منصته يتفرس وجوهنا صامتاً.. ثم قال بهدوء بريطاني عريق: هل أجد من يستطيع أن يفسر لي بكلمات مختصرة ماذا جرى منذ لحظات؟ وصمتنا جميعاً ثم بعد لحظة صمت أخرى تطوعت لكي أفسر له بعض ما جرى متجنباً الإشارة بالطبع إلى الكلمات الجارحة.. والاتهامات الرنانة التي لا أشك في أنه لم يكن في حاجة إلى مترجم لكي يترجمها له! وبعد أن سمع براون موجزاً قصيراً لما جرى.. صمت قليلاً وتفرس وجوهنا مرة أخرى ثم تمتم قائلاً:

_ انفعاليون.. أنتم قوم انفعاليون.. وهذه مصيبتكم! ثم أعلن انتهاء المحاضرة، وغادر القاعة ساخطاً!

وقد ظل هذا الحادث العجيب يحيرني إلى أن قرأت تفسيراً له في كتاب للدكتور زكي نجيب محمود، اعتدت أن اقرأه من حين إلى آخر هو كتاب «تجديد الفكر العربي» وقد جاءت فيه هذه الفقرة:

_ الفكرة عندنا ممزوجة بشخص صاحبها وكرامته، أرفضها ترفضه معها، وأقبلها تقبله معها، إنها شبيهة بالكلب في قول الإنجليز حين يقولون: من أحبني أحب كلبي، وهي قريبة من بعير المحب وناقة الحبيبة في تصور الشاعر العربي القديم الذي قال أنه وحبيبته يتبادلان الحب، فلم يلبث أن امتد هذا الحب المتبادل ليشمل ناقتها وبعيره «أحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري»!

أما أن تنزع الفكرة عن شخص صاحبها لتوضع على أرض البحث - إذ البحث لا يفرش له بساط عندنا إلا في عالم الأمثال السائرة - فيدور عليها النقاش إيجاباً وسلباً وتصحيحاً وتكميلاً، دون أن يكون في كل ذلك ما يمس صاحب الفكرة في كرامته، حاكما كان صاحبها أم محكوما، فذلك ليس من طباعنا ولا هو جزء من كياننا. فإذا عرفنا أن هذه الموضوعية شرط أساسي لأية خطوة يخطوها السائر نحو حياة العلم، فلك أن تستنتج من ذلك ما ترى!

فكدت بعد أن قرأت هذه الفقرة أشك في أن زكي نجيب محمود كان يضعنا تحت مجهره العلمي ويرقب تصرفنا يوم «موقعة كارديف» وهو يكتب هذه الكلمات الصادقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

غرام الرفيق

وقع المحظور.. ووقع الرفيق في غرام بائعة السمك الصغيرة! والرفيق هو أحد أعضاء الدورة وينتمي إلى دولة عربية أدمنت إطلاق الشعارات وتصنيف العرب إلى «ثوريين» ورجعيين.. وتقدميين وتقهقريين.

وكان الرفيق عضوا خطيرا في الحزب الحاكم، ويعمل في ذلك الوقت مديرا لتحرير جريدة الحزب اليومية. وقد سألته يوما ماذا كنت تعمل قبل أن تتولى منصبك الخطير هذا، فأجاب ببساطة: كنت مديراً لمحطة كهرباء!

اندهشت قليلاً لإمكانية أن يجمع إنسان بين «موهبة» إدارة محطة كهرباء وموهبة الصحافة التي ترفعه إلى منصب مدير تحرير جريدة يومية وسألته: أين درست الهندسة!

فقال: لم أدرس الهندسة ولكني درست القانون! فسكت لكي لا «ألبخ» أكثر من ذلك!

لكنني فهمت أنك لا تحتاج إلى شهادة الهندسة في بلاد الرفيق لكي تعين مديراً لمحطة كهرباء ولا إلى شهادة الصحافة لكي تعين مديرا لتحرير صحيفة، وإنما تحتاج فقط إلى بطاقة عضوية الحزب لكي تكون مديراً لأي شيء.

وقد جاء الرفيق إلى هذه الدورة ليتلقى بعض المعلومات عن الصحافة، تؤهله لأن يملأ فمه ببعض العبارات المهنية حين يتحدث عن الصحافة.. وهو لا يحتاج إلى أكثر من ذلك، ففمه منتفخ جاهز بالشعارات والكلمات الضخمة التي يطلقها في وجهك إذا مال الحديث إلى السياسة. كما أنه شديد الصلف وثقيل الظل ويصر على أن يكون له في عالم خفة الدم نصيب، فيزعجك برواية نكتة سخيفة، ثم يتطلع إليك بوقاحة منتظراً منك الضحك بصوت عال، والويل لك إن لم تفعل!

وخلال ترددنا شبه اليومي على مقهى السكة الحديد، اكتشفنا أن شلة الشباب الذين يمضون الأمسية فيه يذهبون بعد إغلاق المقهى إلى مكان آخر على شاطىء البحر يبعد حوالي كيلو مترين اسمه «الكومودور» ليواصلوا السهر فيه، وفي بعض الليالي التي ضقت فيها بالوحدة استجبت لاقتراح الزملاء بالذهاب معهم إلى «الكومودور»، وجلست إلى إحدى الموائد أرقب جموع الشباب.. وهي ترقص على أنغام الديسكو، ومع تكرار ظهورنا في السكة الحديد والكومودور عرفنا بعض شباب بنارث وعرفونا، وكانوا جميعا في حدود العشرين وقد تعلموا في مدرسة واحدة منذ الطفولة.

ودعوناهم مرارا إلى تناول المرطبات على حسابنا فقبلوا الدعوة شاكرين، ولكن لم يفكر أحدهم في أن يرد الدعوة لنا أبدا!

وبين هؤلاء الشباب كانت «آن» لافتة للنظر بجمالها الهادىء وشعرها الطويل على خلاف بقية الفتيات.. وكانت ككل الفتيات والشبان الذين عرفناهم في بنارث قد تخرجوا من «الهاي سكول» أي المدرسة الثانوية وخرجوا للعمل، وبعضهم كانوا ممن يسمونهم في بريطانيا بـ «تاركي المدارس» أى ممن لم يكملوا الدراسة الثانوية وخرجوا للعمل، وهي ظاهرة موجودة في بريطانيا وتمثل إحدى مشكلات الشباب هناك.
وطوال إقامتي في بنارث لم أتعرف سواء في مقهى «السكة الحديد» أو مقهى «الكومودور» على شاب واحد من خريجي الجامعة أو يدرس بها، بل كانوا جميعا من حملة شهادة المدرسة الثانوية أو من «تاركيها».
وكانت آن هي إحدى هؤلاء الشباب، وتعمل بائعة سمك في سوق كارديف. ولقد وقع المحظور ووقع الرفيق في غرامها بلا أي تشجيع من جانبها.. وبدأ يطاردها بابتساماته ونظراته ودعواته لتناول المرطبات، وهي تعامله بأدب وتحفظ إلى أن عرف من زملائها تاريخ عيد ميلادها.. وانتظره بصبر ثم فاجأها يوم عيد ميلادها بخاتم من الذهب، دهشت له آن طويلاً وتجمع حولها الشباب يتفرجون على الخاتم.. ويتعجبون من هذا الشرقي الذي يهدي فتاة لا يكاد يعرفها خاتما من الذهب! ورغم غرابة الموقف فقد قبلته آن وشكرته ونهضت لتنصرف مع صديقها! واستمرت في تحفظها وتعاملها معه بأدب.
وبعد أسبوع بالضبط جاءته أختها لتقول له: أن عيد ميلادها سيأتي بعد يومين! ففهم الإشارة ومضى في اليوم التالي صاغراً إلى محل الجواهرجي ليشتري منه هدية ذهبية أخرى، ولم يتغير موقف آن منه سوى في مجاملته فقط بالرد عليه من حين لآخر كلما خاطبها..
إلى أن جاء يوم وحياها كالعادة ففوجىء بها تجيبه بتحفظ أشد.. وسألها عما غيرها فصارحته بأن زميله الآخر، وهو من مواطنيه، قد أبلغها أن متزوج وأب لولدين، وأنها تحس بتأنيب ضمير لأنها شجعته على التعرف بها مما يهدد كيان أسرته.. وطلبت منه بأدب ألا يعود للحديث معها مرة أخرى! فكان ذلك بداية أزمة «حزبية» عنيفة بين الزميلين، فالزميل الذي أبلغها بذلك عضو بالحزب لكنه أقل مرتبة منه.. وقد فعل ما فعل بدافع غيرته من الرفيق وليس حرصا على أسرته.. إذن هي الحرب! وإذن هي أزمة جديدة كان علينا أن نتدخل فيها، وأن نقرب بين الزميلين وننتقل بينهما بالمساعي الحميدة ونسمع للأول وهو يعلن حسن نيته، ويؤكد أنه فعل ذلك خوفا على زميله من الاندفاع وراء عواطفه.. ونسمع للآخر وهو يهدد بالكلمات الضخمة مؤكدا سوء نية زميله ويهدد بالويل والثبور، حين يعودان معا إلى أرض الوطن، وكانت حكاية من حكايات الدورة الدراسية التي لا تنسى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ودوري.. يا دنيا!

زملاء الدورة الدراسية نماذج متباينة من البشر. وحين بدأنا الدراسة طلب منا مستر رولاندز أن يتحدث كل منا لمدة 10 دقائق عن نفسه وصحفيته وتجربته في العمل الصحفي.. فكانت محنة لبعضنا لأن الحديث بالإنجليزية فيما يشبه المحاضرة يختلف عن سماع المحاضرات وفهمها. وكان أكثرنا يفهم الإنجليزية بأحسن مما يتحدث بها، ورغم ذلك فقد قبل بعضنا المخاطرة وتحدث عن نفسه بالإنجليزية وتراجع البعض فأذن له رولاندز في الحديث بالعربية؛ لأن الهدف هو أن يعرف بعضنا الآخر أما هو فيعرف عنا ما يكفيه من ملف كل منا بالمعهد. وكانت هذه المحاضرات القصيرة فرصة لأن أتعرف على شخصيات زملاء الدورة الذين ساهمت تجاربي معهم فيما بعد في أن أكون عنهم صورة قريبة من الواقع.

كان أقرب زملاء الدورة إلى قلبي صحفي أردني اسمه عوني.. شدني إليه برقته ودماثة أخلاقه.. وبنفوره من تصرفات بعض محدثي الثراء من زملاء الدورة، وقد تقاربنا خلال الشهور التي عشناها في بنارث وتزاملنا في كل مراحلها إلى أن حملتنا سيارة الأجرة، بعد نهاية الدورة إلى مطار هيثرو لأركب الطائرة إلى القاهرة وليركب هو طائرته إلى عمان.

وبعد فترة التطلع الأولى إلى التعرف على الحياة الجديدة من حولنا.. زهدنا في الذهاب إلى مقهى السكة الحديد أو الكومودور، وأصبحنا نمضي معظم الأمسيات في غرفتي حيث تنضم إليها «منى» وهي طالبة أردنية كانت تدرس الوثائق والمكتبات في جامعة كارديف وتقيم بالبيت العالمي، و «سلوى» الصحفية المصرية التي تشاركنا الدورة والصحفية السودانية من زميلات الدورة وقد اكتسبنا خبرة ثمينة من تجاربنا في البيت العالمي، وعرفنا أن عشاءه الميكروسكوبي مع ما يحتويه أحيانا من أطباق غريبة على أذواقنا لا يصمد لأكثر من ساعتين نعاني بعدهما من قرصات الجوع حتى الصباح.. فأصبحنا نتبع نظاما غذائيا مكونا من عشائين. عشاء أول في مطعم البيت حيث نأكل ما تقبله شهيتنا منه، وعشاء ثان في غرفة أحدنا بعد ساعتين نصنعه في مطبخ الدور. وهكذا صمدنا للحياة في بريطانيا العظمى!

وجالسين على الأرض في غرفتي، أمضينا ليال عديدة في سمر يخفف عنا وحشة الغربة.. بعضنا يقرأ والبعض الآخر يلعب الشطرنج.. والبعض الثالث يصنع الشاي، والأغاني العربية تنبعث باستمرار من جهاز التسجيل، وقد جمع بيننا الاغتراب فربط بين قلوبنا بروابط متينة.

وإلى هذه الجلسة كان ينضم إلينا في أحيان كثيرة «بيير»، وهو شاب من كولومبيا بأمريكا الجنوبية يعمل أبوه مديراً لبنك في بلاده.. وقد ألحقه بوظيفة صغيرة في فرع البنك في كارديف ليجرب الحياة وحده ويحسن من مستوى

لغته الإنجليزية.. وبعد شهور أرسل إليه شقيقته الصغرى «ماريا» لتعمل معه في الفرع نفسه، ولتعيش التجربة نفسها فكانت تنضم إلى جلستنا أيضا.. وتؤكد لنا في البداية أنها لم تترك بلادها وتعبر المحيط إلى بريطانيا من أجل شقيقها، كما قد نتصور نحن بعقليتنا الشرقية، وإنما لتخوض تجربتها في الحياة وتكسب خبرة جديدة، وبالفعل فلقد كان لكل منهما حياته المستقلة. فيقيم كل منهما في غرفة من غرف البيت العالمي، ويعيش في حدود مرتبه الصغير، وكان بيير أكثر إنفاقاً منها فينفد مرتبه، ويحاول الاقتراض منها فتقرضه مرة وترفض مرات.

وكذلك كان ينضم إلينا «مرتضى» وهو طبيب عمانى خفيف الروح، كان يدرس للزمالة الطبية في جامعة كارديف، و «أحمد» السوداني وهو صيدلي كان يحضر للماجستير ومتخرج من جامعة جلاسجو في أسكتلندا، وكان ينضم إلينا من حين إلى آخر زوار آخرون من طلبة البيت العالمي، الذي كان بحق برج بابل بما يضمه من جنسيات مختلفة ولغات عديدة متباينة.

وبعد أن انتهت دراستنا وعدنا إلى بلادنا سمحت لي ظروفي كصحفي بأن ألتقي ببعضهم بعد سنوات، فكنت ذات يوم في مسقط عاصمة عمان في رحلة صحيفة فسمعت في الإذاعة برنامجا طبيا يجري فيه المذيع حواراً مع مدير المستشفى الحكومي في مسقط.. وسمعته يقدمه فإذا به مرتضى صديق سهرات البيت العالمي في بنارث، فسعدت جدا بهذا الاكتشاف وأسرعت أتصل بالمستشفى تليفونياً، وكان لنا لقاء حار استرجعنا فيه ذكريات بنارث الجميلة.

وذات يوم كنت في الخرطوم مدعواً لحضور المؤتمر العام للاتحاد الاشتراكي السوداني في عام 1983، فلمحت في أبهاء المؤتمر آمال الصحفية السودانية التي شاركتنا الدورة. وكان لقاءاً حاراً وسألتها عن أحمد رفيق ليالينا فقالت لي: أنها لم تره في الخرطوم أبدا بعدها. وذات يوم كنت في عمان عاصمة الأردن في رحلة صحفية أخرى، فسألت مدير كتب وكالة أنباء الشرق هناك عن «عوني» فاتضح أنه من أصدقائه، وأسرع يتصل به فجاء مسرعاً وكان لقاء حاراً تجددت فيه المشاعر الأخوية.

وذات مرة كنت في عاصمة بلاد الرفيق في رحلة صحفية أخرى فخطر لي أن أسأل عن «الرفيقين اللذين زاملاني في الدورة، وإن لم يكونا من أصدقائي المقربين فيها فعرفت أن الرفيق الصغير يعمل ملحقاً صحفياً في إحدى سفارات بلاده، أما الرفيق الأكبر المتغطرس فقد سمعت أنه قد واصل صعوده في الحزب وفي الحكومة. ثم فقد فجأة منصبه وانزوى في الظل مغضوباً عليه، أما الجماهيريون الخمسة الذين كانوا من زملاء الدورة فلم أعرف عنهم شيئا بعد ذلك لأني لم أزر بلادهم أبدا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

شخير.. في الأوبرا

اصطحبنا مستر رولاندز إلى زيارة لفرقة الأوبرا ويلز في كارديف وكانت تستعد لتقديم أوبرا «هبوط أورفيوس» بعد أيام، وقدمنا إلى ابنته التي تعمل في ديكورات الفرقة. خلال هذه الزيارة عرفت أن الفرقة شركة كأي شركة أخرى من الشركات التجارية، مكونة من عدد محدود من الإداريين والفنيين والفنانين.. وأنها تنتج عروضها وتوزع عائدها على أعضاء الشركة بنسب مختلفة.

وحين عدنا إلى المعهد وعدنا رولاندز بأن يرتب لنا رحلة إلى مدينة «سوانسي» التي ستقدم فيها الفرقة عرضها. ولاحظت أنه قال: إنه يستطيع أن يصحب معه 3 أشخاص فقط إلى هذه الرحلة، وسألنا عمن يرغب في الذهاب فتقدمت «سلوى» لأنها ناقدة فنية مهتمة بالمسرح و «آمال» السودانية، وتقدمت أنا لأني من هواة المسرح بكل فنونه، وفي يوم الافتتاح طلب منا رولاندز أن نلتقي به في الساعة الخامسة مساء في موقف الأتوبيس بكارديف ليصحبنا إلى هذه الرحلة، ففوجئنا بالرفيق الأصغر يطلب الذهاب معنا، وظهر التردد على وجه رولاندز وأحسست بأنه واقع في حرج لم أدرك كنهه، لكنه لم يتراجع وقال بعد لحظات: حسنا انتظرني معهم في الموعد!

وحيرني تردد رولاندز وإحساسه بالحرج.. ولم أفهم سره إلا حين جاء في الموعد فإذا به قادم في سيارته التي لا تتسع إلا لخمسة أشخاص، وفهمت أنه كان ينوي أن يذهب إلى الأوبرا مع زوجته تلبية لدعوة ابنتهما.. وأنه أراد أن يتيح الفرصة لثلاثة منا معه لكن تطفل الرفيق الصغير أفسد عليه خطته..ومنعه أدبه من أن يصارحنا بالموقف معه ومضت بنا سيارته إلى غايتها.

وفي سوانسي استقبلنا مندوب العلاقات العامة للشركة ورحب بنا، ثم قادنا إلى مقاعدنا في قاعة الأوبرا وتهيأت للاستمتاع بالغناء والموسيقى، ثم بدأت أحداث الأوبرا وهي من التراث الفرنسي.. وكتب موسيقاها الموسيقار الشهير أوتنباخ في عصر الإمبراطور نابليون الثالث، وتحكي عن أسطورة أورفيوس الذي هبط إلى العالم الأرضي ليبحث عن زوجته.. وعبث الآلهة به خلال رحلة بحثه عنها! وهي أوبرا ضاحكة جميلة استمتعنا بها كثيرا وضحكنا فيها كثيرا وآلهة العالم الأرضي تعبث بأورفيوس وتدبر له المكائد، وكانت ليلة جميلة لم يضايقنا فيها شيء إلا «شخير» الرفيق الأصغر الذي تطفل على الرحلة، وحرم رولاندز من اصطحاب زوجته إليها! فقد كان يتصور فيما يبدو أنها حفل منوعات.. وحين اكتشف الحقيقة راح في سبات عميق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفاتنة الصغيرة!

بعد فترة من التجوال والتنقل بين مقاهي شارع الملكة «كوينز ستريت» في كارديف، وقع اختياري على محل صغير للشاي؛ لأمضي فيه فترة راحة الظهيرة من الثانية عشرة والنصف حتى قرب الثانية.

وفي اليوم الأول الذي جلست فيه بالمقهى، فوجئت بفتاة صغيرة آية في روعة الجمال والرشاقة والنضارة تقترب مني، فكدت أن أقف تحية لها واستعدادا لاستقبالها، لولا أنني رأيتها تضع فوق فستانها فوطة صغيرة، فأدركت أنها الساقية وأسفت لأن يمتهن الجمال في مثل هذا العمل الشاق، فعمل الجرسون أو الساقي من أقسى الأعمال البشرية، والمجهود الذي يبذله فيه من يمارسه يزيد عن ضعف الجهد البشري في عمل آخر، ولأنني أدرك ذلك منذ وقت طويل في حياتي فقد أعتدت دوما أن أسخو على من يتولى خدمتي منهم، وأن أحسن معاملته وألا ألومه أبدا على خطأ أو تصرف، حتى ولو سكب كوب الشاي الساخن على ملابسي، فكيف يكون حالي مع هذه الهيفاء الفاتنة؟ شربت الشاي، وراقبت الساقية الصغيرة وهي تنتقل بخفة بين الموائد، تحمل صينية تحتاج إلى رجال أشداء لحملها بغير أن تسقط منهم، وتذكرت وأنا في جلستي هذه ما رواه أديبنا الكبير الراحل توفيق الحكيم في كتابه «عصفور من الشرق» من أنه قد وقع في غرام قاطعة التذاكر بمسرح الأديون سوزي، فراح يقضي معظم النهار جالساً في مقهى مواجه للمسرح، بحيث يراها في نافذة قطع التذاكر أو ينهض ويقترب من الشباك، ويتجمد أمامها مذهولا لأكثر من نصف ساعة لا يرفع بصره عنها حتى لاحظت زميلة لها ذلك، ولفتت نظرها إلى هذا الشاب النحيل الغريب، الذي يذهل عن نفسه كلما وقف أمامها، وأصبحتا تتبادلان التعليقات الضاحكة على حاله ومظهره وجموده أمام شباك التذاكر، فإذا اقترب من شباك التذاكر قالت إحداهما إن «المجنون» قد جاء، وإذا تأخر عن موعده قالت الأخرى إن «المجنون» قد تأخر عن موعده اليوم فلعله مريض، فلا يلبث أن يأتي وهو مزكوم ويلف رأسه بكوفية صوفية!

ثم ضاق الحكيم بما يحمله من مشاعر، ودبر خطه تعفيه من بعض هذا العناء، فلازم المقهى حتى موعد انتهاء عمل فاتنته، ثم تبعها عن بعد في الطريق وركب المترو نفسه الذي ركبته، ونزل في المحطة التي غادرته فيها، وتتبعها حتى باب الفندق الصغير الذي تقيم فيه في أحد أطراف المدينة، فما أن دخلته حتى دخل بعدها وتوجه إلى موظف الفندق، وتحايل عليه حتى عرف منه رقم غرفة الآنسة التي صعدت قبل قليل، ثم طلب تأجير الغرفة التي تعلو غرفتها، وكانت بالصدفة خالية، فسعد بذلك كثيرا وسرعان ما هجر مسكنه السابق ونقل ملابسه وكتبه وأوراقه إلى مستقره الجديد، وأصبحت

قمة المتعة بالنسبة إليه إن ينهض مبكرا في الصباح، فيطل على نافذة فاتنته، ويستمتع برؤياها واقفة في النافذة، تستنشق الهواء وتترنم ببعض الأغنيات الفرنسية الجميلة.
وبعد بضعة أيام فكر في أن يقدم إليها هدية تعارف، ونصحه صديق أن يشتري لها حقيبة جلدية أو علبة من أدوات التجميل أو العطور أو باقة من الأزهار.. لكن هيهات أن يفكر الفنان الفيلسوف كما يفكر البشر العاديون، لقد توجه إلى سوق الطيور واشترى ببغاء ناطقا، وحمله في قفصه وسار به في الطريق، تلاحقه مجموعة كبيرة من القطط والكلاب، تريد التهام الطائر الجميل؛ حتى اضطر لأن يركب سيارة أجره قبل أن يفقد طائره.
وفي غرفته في الفندق راح يلقن الببغاء بعض العبارات والأسماء حتى أجادها، وفي الصباح أدلى بالقفص بحبل حتى أرساه على حافة نافذة فاتنته، وصحت الفاتنة من نومها واتجهت كعادتها إلى النافذة لتستنشق الهواء البكر، فدهشت لما رأته، ثم رأت الحبل المدلى من أعلى فأدركت من أين جاء ورفعت عينيها إلى الطابق العلوي، فإذا بالفيلسوف الشاب يبتسم لها ويحييها تحية الصباح، فترد تحيته
باسمة ثم سألته: لمن هذا؟
_ لك
_ لي.. شكرا يا سيدي.. لكن لماذا؟
_ إنها هدية بسيطة
_ ما أجمل هذا الببغاء. ما اسمه؟
_ محسن
_ محسن؟
وما كادت تنطق بهذه الكلمة حتى صفر الببغاء وصاح: أحبك.. أحبك.. أحبك!
استرجعت كل ذلك وأنا جالس أرقب الجرسونة الفاتنة، وقررت أن أدعو صديقي عوني لتناول الشاي معي في اليوم التالي في هذا المكان؛ ليرى اكتشافي المهم، ثم أقاطع المقهى بعد ذلك لكيلا ينتهي بي الحال إلى الوقوف كالمذهول أمام الفاتنة الصغيرة.
وبالفعل دعوت عوني في اليوم التالي، ولم ألفت نظره مسبقا إلى جمال الساقية الخارق، وتركته يكتشف المفاجأة بنفسه، فما أن اقتربت منا حتى رأيت عوني مفتوح الفم مشدوهاً ويكاد يفقد النطق، وبعد انصرافها عنا صاح في قائلاً: كيف تشتغل هذه جرسونه؟ تيجي عندنا فتصبح نجمة للسينما والمسرح والتليفزيون، أو يتزوجها مليونير عربي ويكسوها بالرياش الفاخرة ويغمرها بالمجوهرات والسيارات والعطور!
وتعجلت تناول الشاي لكيلا يتضاعف تأثير الساقية على عوني المذهول.. وأسرعت بالفرار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

كاباكا ([3]) الأول!

كان موضوع المحاضرة عن حق الشعوب في معرفة الأخبار التي تمس حياتها، فأثارت المحاضرة خواطري وتأملاتي؛ إذ لم أفهم أبدا رغم سنوات عمري الطويلة بالصحافة سر العقلية الغريبة التي ترى أن من حقها أن تحجب عن الناس خبرا يعرفه العالم كله إلا أصحاب الشأن فيه! وتحاول أن تتحكم في آذان البشر، فتفتحها لكي تسمع ما يحبون لهم أن يسمعوه، وتغلقها دون مالا يحبون لهم أن يعرفوه. ولأنه ليس من المنطقي أن تحاول إجراء حوار مع عقلية فاشية.. فلابد من التخيل لمحاولة فهم المنطق الفاشي الذي يؤمن بحكمة التسلط على تفكير الآخرين وعقولهم. ولو أتيحت لك فرصة إجراء حوار مع مسؤول من ذلك النوع.. وتوافرت لك أولا الشجاعة الكافية لكي توجه إليه هذا السؤال «غير المهذب»، فإن الحوار غالبا سوف يجرى على الوجه التالي:

_ يا سيادة الحاكم الفاشي لماذا ترى أن من حقك أن تتملك وحدك كل وسائل الاتصال والتأثير في الرأي العام، فلا تسمح لشعبك بأن يقرأ ويسمع إلا ما تريد لهم سماعه وقراءته؟

الجواب: نظرة قاسية تزلزلك في مكانك، وفترة صمت طويلة تتحلل خلالها مفاصلك.

وبعد هذه النظرة القاتلة التي تلخص كل مشاعر الكراهية تجاه شخصك، يتأهب المسؤول الفاشي للكلام في النهاية، فيميل إلى الأمام قليل ثم يبتسم لك ابتسامة صفراء ويقول لك بصوت خفيض:

_ هيه.. من وراؤك يا صديقي؟

ستلتفت فزعا لترى من يقف وراءك فلا تجد أحدا بالطبع فتجيب بحسن نية: لا أحد ورائي يا أفندم.

فيقول لك بدهاء، لا أقصد من وراءك الآن في المكتب إنما أقصد من الذي دفعك لكي تسأل هذا السؤال.

فمن الطبائع الأساسية لأي مستبد في أي عصر وفي أي مكان أن يفترض دائما فيك أنك لا يمكن أن تكون صادرا عن نفسك، في أي تساؤل أو أي خاطرة تتعلق بموضوع الحريات.. ومن طبائعه أيضا أن يعتبرها قضية مسلما بها أن أي متسائل عن الحريات هو بالتأكيد عميل لجماعة أو لهيئة أو لحزب سري أو لمخابرات أجنبية، دفعته لكي يحرجه بهذا السؤال!

فإذا افترضنا جدلا أن هذا المسؤول كان مختلفا قليلاً، ومن النوع الذي يحاول أن يفلسف استبداده ويضفي عليه طابعاً مزيفاً من الموضوعية، فإنه سيقول لك في لهجة «عملية»: إننا نحجب بعض الأخبار عن الناس لكي لا تؤثر في

معنوياتهم، ولكي لا نتيح للأنظمة المعادية أن تنفذ أغراضها.. وتؤثر في الرأي العام وتحقق مخططاتها التخريبية الإجرامية.
إن كنت مازلت بعد هذا الامتحان الرهيب قادرا على الاستمرار في المناقشة، فإنك ستقول له: لكنك يا سيدي تقرر بذلك أن الناس في بلادك قاصرون وعاجزون عن الإدراك والتمييز، وأنك أكثر وعيا منهم.. وهذا ضد منطق الأشياء. لأنك تستطيع أن تسمح بالأخبار التي يعرفها العالم، ومن حقك بعد ذلك أن تعلق عليها وتتصدى لما تتضمنه من تضليل أو أكاذيب، فتقنع الناس بالدعوة، لا بسياسة إغلاق المحابس كما تفعل أنت.. وسياسة إغلاق المحابس.. مهما حاول البعض فلسفتها لا تهدف إلى حماية الشعوب من التأثيرات الخارجية، وإنما إلى شيء واحد تضعه دائما أمام عينيها، وهو حماية النظام فقط لا غير.. وأنت فاهم وأنا فاهم!
إن لم يفقد المسؤول الفاشي صبره فيسحب طبنجته من حزامه.. ويطلق منه رصاصة تنهي المناقشة النهاية الطبيعية لها، أو إن لم يأمر باستدعاء الحرس لإنهاء المناقشة بطريقة أخرى، فإنه سيقول لك غالبا:
أبدا إننا لا نقصد من ذلك إلا حماية الجماهير من البلبلة!!
هل لاحظت هذه الكلمة «الظريفة»؟ وهل توقفت مرة لكي تفكر في معناها أو تتأمل كم جرت على شعوب العالم الثالث من مصائب؟ لقد كانت هذه الكلمة هي دائما مبرر الفاشست في كل مكان وزمان لحجب الحريات وحرمان الناس من حق التعبير عن أنفسهم.
ترى من أين جاءت هذه الكلمة العجيبة؟ ولماذا لا نسمعها أبدا في المجتمعات الديمقراطية؟ أقترح أن يهتم المجمع اللغوي بدراسة أصل هذه الكلمة الغريبة، وأن يحاول أن يكشف عن العلاقة بينها وبين الميول الاستبدادية، لدى الكثير من المسؤولين في العالم الثالث، فلا شك أن في اللغات الأفريقية والآسيوية والإسبانية المنتشرة في بعض دول أمريكا الجنوبية كلمة مرادفة ومتماثلة في النطق والموسيقى، والأثر السيىء لكلمة «البلبلة» الشهيرة هذه. والمؤكد أنها كلمة عالمية فطبائع الاستبداد أيضا عالمية، وليس بعيدا لو أتيحت لي فرصة مقابلة «كاباكا» أفريقي يتحدث اللغة السواحلية، ووجهت إلي السؤال نفسه، لأجاب برزانة تتناسب مع أغطية زجاجات الكوكاكولا التي تنتشر فوق سترته العسكرية الرسمية. سناخا.. رخا.. فتاخا.. جلاخا بلبل!
وسوف تكون هذه الهلوسة ترجمة حرفية للعبارة الشهيرة نفسها.. أي خوفاً من بلبله!
ولو طرت في اللحظة نفسها إلى أمريكا الجنوبية.. وقابلت جنرالا يحكم بلاده حكما بوليسيا لصالح شركة الفواكه الاحتكارية الأمريكية الشهيرة، ووجهت إليه السؤال نفسه لأجاب بالإسبانية، وفي تعقل يتناسب مع شرائط القصب التي تزين «بدلة حسب الله» التي يرتديها: فيرا.. ماديرا.. بوليرا بلبلة!
والجملة لا تحتاج إلى ترجمة!

ولو ركبت الباخرة إلى جزيرة مجهولة بالقرب من أستراليا، تقيم بها جماعات بشرية بدائية.. ووجهت السؤال نفسه، لزعيمها المستبد مستعيناً بترجمة ساحر الجزيرة، لأجاب الزعيم بهمهمة غير مفهومة وبلغة غير معروفة، لن أستطيع أن أفهمها ولكني سوف أميز في نهاية كلامه هذه الكلمة: بلبلة!
ألا ترى إذاً أني محق في كراهيتي لهذه الكلمة اللعينة؟
الحق أني لا أكره هذه الكلمة وحدها، وإنما أكن كراهية العالم كله لأخواتها أيضا.. فبلبلة لها أخوات ككان وأخواتها.. ومن أخوات بلبلة كلمات عديدة منها «التشكيك» و «التخريب» و «الموضوع شائك وحساس ولا داع لإثارته».. إلخ.. وهي كلها كلمات سمعناها وتجرعناها صابرين، خلال تجربة العمل بالصحافة لسنوات طويلة.
تسأل مثلاً مسؤولا من الدرجة العاشرة سؤالا «هايفاً»، وأنت بصدد كتابة أو إعداد تحقيق صحفى للنشر، فيجيب بعد كلمات المجاملة وشرب فنجان القهوة في هيئة الحكماء: الموضوع شائك وحساس ولا داع لإثارته!
والغريب أنك بعد مناقشة قصيرة معه.. وربما بعد استئذان الوزير المختص يتحول الموضوع الشائك بقدرة قادر إلى موضوع «بناء وإيجابي ومطلوب» ثم يتدفق المسؤول في الحديث.. إنك لا تلوم الأشخاص بالطبع، ولكنك تلوم دائما النظم التي تزرع الخوف في نفوس المسؤولين وتفقدهم القدرة على التمييز.. لكن هذه قصة أخرى لن ندخل في تفاصيلها، لأن الموضوع بيني وبينك.. شائك وحساس ولا داع لإثارته!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المغامرون الخمسة!

كان بين زملاء الدورة الدراسية في كارديف خمسة من أبناء بلد عربي بترولي معروف بشعاراته الثورية، ولأن بلدهم ثري أو كان كذلك وقتها فقد أبت إدارة مؤسسة طومسون الصحفية، التي تنظم هذه الدورات الدراسية لصحفيي دول العالم الثالث، إلا أن تكون دراستهم مدفوعة الأجر، وتعاقد المستشار الثقافي بسفارة الدولة العربية مع المعهد على ذلك، وسدد قيمة الرسوم وهي كبيرة؛ خاصة إذا كانت لخمسة دارسين.

وبدأنا الدراسة في كارديف وتوالت الأيام، ولم نر من الدارسين الخمسة سوى اثنين فقط، فلقد تجمع الكل في لندن عند بداية الالتقاء وأمضـوا ليلتهم في فندق «بلومز بري»، وفي الصباح تحرك بنا الأتوبيس إلى كارديف، وليس من ركابه سوى اثنين فقط من الثوريين الخمسة، أما الثلاثة الآخرون فقد تخلفوا في لندن ليستمتعوا بمغانيها وملاهيها لأطول فترة ممكنة.. وهكذا لم نعرف منهم سوى الدارسين اللذين بدأ معنا الدراسة من يومها الأول.. وكان أحدهما متوسط العمر هادئ الطباع، أما الآخر واسمه «خ» فكان عاصفة لا تهدأ ولا هم له إلا السهر في مشرب «الرايلواي» وتجرع الخمر بلاحساب، في أي وقت من النهار والليل.

كان بعض الدارسين قد حمل معه من السوق الحرة بالمطار زجاجة من المشروبات الروحية، ربما ليستخدمها طوال فترة الدراسة، فإذا بالزميل «خ» وبعد أن أتى على زجاجتيه، يطوف بغرف الزملاء، الذين يعرف أن لديهم المطلوب، ويمضي مع كل منهم في غرفته السهرة ويقوم عنه بمهمة تجرع كل محتويات زجاجته! وفي المساء التالي ينتقل إلى غرفة أخرى، ويكرر القصة نفسها حتى أتى وحده على جميع ما حملوه من مشروبات، واعدا إياهم بأنه سيعوضهم عنها،وهو وعد لم يف به أبدا وهيهات أن يفي به! ثم نفدت المشروبات من الدور الخامس الذي نقيم به. وجاء الدور عليّ لكى يقضى السهرة في غرفتي، ويطلب منى إخراج «زجاجتي» لكي أقوم له بواجب الضيافة، لكني صدمته بأنني لا أشرب ولم أشتر من السوق الحرة أية مشروبات. وذهل الشاب الثوري لإجابتي، وقال لي مندهشاً: لماذا لم تقل لي لكي أشترى بجواز سفرك زجاجتين أخريين؟

وفقدت السهرة حرارتها على الفور، ولم يلبث أن استأذن في الخروج قانطا.

أما زميله الطيب «ع»، وقد أطلقنا عليه على الفور لقب الشيخ لعلامة الصلاة في وجهه.. فقد كان يبدو في الفترة الصباحية من الدراسة هادئا وقورا ومتزئا، ويبدو في الفترة المسائية متورد الوجه منتشيا وأكثر استعدادا للعدوانية من أي وقت سابق.

ولفت نظرى ذلك بعد عدة أيام، فأبديت هذه الملاحظة لزميلي عوني وسألته عن سرها.. فضحك وقال إن «الشيخ» ما أن ينتهى من الغداء سريعا حتى يهرول إلى بار في شارع كوينز ستريت ويتجرع فيه 6 أو 7 كؤوس من الويسكي، ويرجع في هذه الحالة المعنوية العالية.. ففهمت أخيرا سر النشوة والعدوانية، وتجنبت التعامل معه في الفترة المسائية من الدراسة بكل وسيلة.

وبعد شهر من الدراسة، انضم إلى الثوريين الاثنين ثائر ثالث، جاء متأخرا مصطحبًا زوجته وأولاده واستأجر بيتا في ضواحي كارديف وبدأ ينتظم في حضور المحاضرات.. ولاحظت عليه الهدوء والوداعة وأنه يمضي وقت المحاضرة كله صامتا يستمع باهتمام شديد.. وتوالت الأيام والمحاضرات، وذلك الثائر «م» على حاله نفسها من الصمت والهدوء.. شيء واحد كان يزعجني بشدة منه، هو أنه كان يتجشأ بصوت عال جدا في محاضرات الصباح، ودون أي محاولة من جانبه لكبح التجشوء، ثم يظل جالساً في هدوء بعد ذلك كأنما لم يفعل شيئاً، وتكرر الأمر مرات عديدة حتى شكوت لأحد زملائه الثوريين، راجياً منه لفت نظره إلى أن هذا الفعل معيب بشدة في بريطانيا وأى مكان من العالم، فإذا به يجيبني بلهجة الفاهم لكل الأمور قائلاً: أصل المرة بتسوي له عصيدة بالزيت الصبح!

ودهشت لما سمعت وسألته عن معناه، ففهمت أنه يقول لي إن «م» يتجشأ في المحاضرات؛ لأن زوجته تعد له عصيدة بالزيت في الصباح! وحين أدركت المعنى قلت له إنه لا يعنيني تفسير الظاهرة، وإنما علاجها وكررت عليه الرجاء بأن يلفت نظره إلى ذلك فوعد.. وجاء الصباح التالي، وترقبنا موعد التجشوء اليومي، فإذا بالمحاضرات تمضي هادئة بلاأية قنابل صوتية.. وقلت لنفسي لقد كانت إذا مجرد عادة لم يقاومها، وحين قاومها نجح في كبحها.

شيء آخر مازلت أذكره من قصة هذا الشاب «م» حتى الآن فلقد أشرت من قبل إلى أنه كان يستغرق في سماع المحاضرات حتى ليظل صامتا لا ينبس ببنت شفة خلالها.. ولا يستفسر عن شيء ولا يناقش شيئا، فأكبرت فيه هذا التجرد للعلم والدرس.

وبعد أن أمضى معنا شهرا، وهو على هذه الحال من الاستماع الصامت للمحاضرات، قلت عفو الخاطر لأحد زملائه الثوريين: ألا يعن لفلان هذا أن يسأل سؤالاً، أو يعلق أي تعليق على ما يسمعه في المحاضرات كما نفعل نحن؟

فنظر إليّ باسما، ثم قال: إنه لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية، ولا يفهم ما يسمعه ولا ما يقال أمامه.. ووقت المحاضرات بالنسبة إليه عذاب كعذاب الجحيم، ولكنه يتحمله صابراً!

بعد 45 يوما من الدراسة رأينا الوجه الثوري الرابع، وكان شابا نحيلاً وسيماً يدعى «ع»، وقد أقام في لندن مستأجرا شقة صغيرة طوال الدراسة،

ويكتفي بأن يطل علينا من حين إلى آخر ليمضي معنا يومين، يحضر خلالهما المحاضرات، ويحاول إثبات انتظامه الشكلي في الدراسة، ثم يسرع بالفرار إلى لندن ومغانيها مرة أخرى.
تذكرت ذات مرة وأنا أرقب أحوال «ع» هذا الذي لا يشغله في الحياة سوى ملاحقة الفتيات وتجرع الويسكي، العبارة الحكيمة التي قالها فيلسوف الجيل لطفي السيد لبعض المبعوثين المصريين في باريس، في أوائل هذا القرن، وهي: ما كل باريس لهو! أي إن في باريس من اللهو والمغاني والجمال والغناء الكثير، لكن فيها إلى جوار كل ذلك العلم والأدب والفكر والفن الراقي والسلوك المتحضر، وعلى من يوفد إلى باريس للدراسة ألا تشغله ملاهي باريس عن مواطن عظمتها الأخرى، وهي نصيحة لم يستمع إليها أبدا رابع المغامرين الخسمة خلال دورتنا الدراسية.
بعد شهرين من الدراسة، فوجئنا ونحن في قاعة المحاضرات بشاب قصير يرتدي بنطلونا من الجينز، وشعره منكوش على طريقة التسريحة التي كانت معروفه وقتها باسم «كانيش»، يدخل علينا ويصافحنا فردا فردا بحرارة.. ورحبنا به وتساءلنا من هو فقال لنا أحد الثوريين الخمسة... إنه الزميل الخامس في الدورة الدراسية، وإنه أمضى الشهريين الماضيين من الدراسة في لندن، رافضا أن يتحرك منها ولو كان دون ذلك خرط القتاد! وسألنا: هل جاء الآن لكي يقضى معنا الشهر الباقي من الدراسة؟ فقيل لنا: لا لقد جاء «ليرى» قاعة المحاضرات وأساتذة الدورة وزملاء الدراسة؛ لكي يستطيع أن يقول إنه قد جاء إلى كارديف وحضر بعض المحاضرات.. أما بعد ذلك فلسوف يسافر خلال أيام إلى تايلاند، ويمضي هناك بقية الفترة ويرجع معنا من لندن إلى بلادنا.
وذهلنا: تايلاند؟ وما حاجته إلى تايلاند.. وقد جاء لدراسة الصحافة في بريطانيا.. فقال أحدهم غامزاً بعينه: لأنه قد سمع من أصدقاء له أن اللهو هناك سهل ورخيص وبربع الثمن!
ولله في خلقه شئون!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البطاقة المسحورة!

جاءنا زائر من الإذاعة البريطانية ليلقي علينا محاضرة في علم الاتصال، وليعرفنا بنظام العمل في الإذاعة البريطانية الشهيرة. كان الزائر هو رئيس القسم العربي بالإذاعة مستر «هافيظ» كما قدمه لنا رولاندز. وألقى علينا الأستاذ عبد الحفيظ محاضرته باللغة العربية ثم اختار منا 4 أعضاء، كنت من بينهم ليدير معنا حوارا عن الدورة الدراسية يذاع في البرنامج العربي من الإذاعة البريطانية، فذهبنا جميعا إلى مبنى الإذاعة المحلية في كارديف.. ودخلنا الأستديو معه ووقف بقية الزملاء مع رولاندز يرقبوننا من غرفة التسجيل الزجاجية.

كان عبد الحفيظ فلسطينيا حاصلا على الجنسية البريطانية، وقد روى لنا من بين ما روى أنه حصل على الجنسية البريطانية بالمراسلة؛ إذ إنك في بريطانيا تستطيع أن تجري كل معاملاتك مع الأجهزة الحكومية بالبريد حتى في أعقد المسائل كمسألة الحصول على الجنسية، فالمسألة أوراق إذا كانت مستوفاة فلا شيء يمنع حصولك على ما تريد، ولا شيء يضطرك إلى الذهاب إلى مكاتب الإدارة الحكومية.

وهكذا كتب إلى إدارة الهجرة هناك يطلب الحصول على الجنسية فأرسلت إليه نموذجا لملء بياناته، فأعده وأرسله إليها مع جواز سفره فتمت دراسة الطلب في المدة المحددة.. وتم منحه الجنسية وأعيد إليه جواز سفره حاملا كل التأشيرات المطلوبة، «وكله بالبريد» كما قلنا لأنفسنا متعجبين!

وبمناسبة البريد فقد تذكرت واقعة طريفة كان بطلها الرفيق إياه، فقد كتب الرفيق بطاقة بريدية لأحد أصدقائه في بلده.. وألقاها في الصباح في صندوق البريد المجاور لمحطة الأتوبيس التي نركب منها في الصباح إلى كارديف، وذهبنا جميعا إلى المعهد ثم عدنا في الخامسة مساء فوجد الرفيق البطاقة، تنتظره في البيت العالمي! ووجد طابعها مختوما بخاتم البريد البريطاني فلم يفهم لماذا لم تسافر إلى بلاده.. وظن أن قيمة الطوابع أقل مما ينبغي فزاد من عددها ووضع البطاقة صباح اليوم التالي في الصندوق نفسه، وأمضى يومه في المعهد.. ثم عدنا إلى البيت العالمي فوجد البطاقة تنتظره فيه! واستنكف فيما يبدو أن يسأل أحدا عن سبب ذلك فمزق البطاقة، وكتب بطاقة جديدة وضع عليها طوابع كافية.. ولم يشأ أن يلقيها في صندوق البريد المجاور للبيت العالمي، وإنما حملها معه إلى كارديف، وألقاها في أحد صناديق البريد هناك، وذهب إلى المعهد ثم عاد مطمئنا في المساء إلى البيت العالمي، فوجد البطاقة تنتظره هناك منذ الظهيرة! ففقد صبره أخيرا، وتخلى عن حرصه على ألا يعرف أحد سر البطاقة وصاح منفجرا: إيش ها الحكاية.. الصبح الصبح ألقى البطاقة في الصندوق.. والعصر أجدها في الإنترناشيونال

هاوس! تناولنا البطاقة منه وتناقلناها متعجبين حتى اكتشفنا أخيرا سرها.. فالرفيق قد كتب عليها بضع كلمات باللغة العربية لصديقه.. ثم أتبعها بعنوانه هو في البيت العالمي باللغة الإنجليزية بخط كبير بارز في حين كتب اسم بلاده على رأس البطاقة بالإنجليزية بخط صغير جدا. وكلما وصلت البطاقة إلى مكتب التوزيع.. قرأ الموظف عنوان البيت العالمي في بنارث البارز فوق البطاقة، ولم يلتفت إلى الكلمة الصغيرة في طرف البطاقة التي تشير إلى اسم بلاد الرفيق المرسلة إليه، فيظن أن البطاقة موجهة إلى البيت العالمي ويعيدها إليه!

ضحكنا من قصة البطاقة المسحورة طويلاً، ونصحناه بألا يأمن لأحد عليها واقترحنا عليه أن يسافر إلى لندن، ويسلمها بنفسه إلى سفير بلاده ليرسلها إلى صديقه بالحقيبة الدبلوماسية خوفا من أن تعود إليه مرة أخرى.. واقترح بعضنا عليه أن يخطف رجله بالطائرة إلى بلاده ليلقي البطاقة في أقرب صندوق بريد في عاصمة بلاده ويعود بالطائرة نفسها مسرعا قبل أن ترتد إليه كالسهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اليوبيل الناقص!

شاهدت موكب الملكة إليزابيث التاريخي، خلال الاحتفال بمرور 25 عاما على تتويجها ملكة لبريطانيا في عام 1977.

فلقد كانت بريطانيا تحتفل خلال دراستنا في الدورة باليوبيل الفضي للملكة، وكانت الاستعدادات للاحتفال على قدم وساق قبل موعده بشهرين، وصور الملكة تطبع على كل شيء على الأكواب الفخارية التي يشرب الإنجليز فيها الشاي، وعلى الأطباق الموشاة من الصيني الفاخر، وفي كل مكان تجد شيئاً تشتريه يحمل صورة الملكة وتاريخ تتويجها وتاريخ الاحتفال بمرور 25 سنة عليه. وحين جاء موعد الاحتفال منحنا المعهد أجازة لمدة 5 أيام فحملت حقيبتي.. وركبت القطار من كارديف إلى لندن لأمضي فيها العطلة وأشهد الاحتفالات.

وخلال ليالي الاحتفال كان التليفزيون البريطاني يذيع كل ليلة برنامجا حافلا من خيمة، أقيمت خصيصاً في هذه المناسبة لتقديم فقرات الاحتفال وكانت فقرات مثيرة ومبتكرة، وشارك فيها نجوم عالميون. أما مذيعها فكان أشهر مقدم برامج في بريطانيا، ومن بين هذه الفقرات مازلت أذكر فقرة طريفة أعلن خلالها مقدم البرنامج أنه سيستضيف الآن ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز ليجري معه حديثاً عن أمه الملكة فضجت القاعة بالتصفيق.. وعزفت الموسيقى السلام البريطاني، ثم دخل الضيف فإذا به ممثل كوميدي بريطاني مشهور بتقليد الشخصيات، فتضاعف التصفيق والتهليل وانطلقت الضحكات استعدادا للاستمتاع بتقليده للأمير شارل، وجلس هو على مقعده وبدأ يجيب عن أسئلة المذيع مقلدا صوت الأمير.. ولهجته وطريقته في الكلام وتلعثمه وحركات يديه وجمهور القاعة ومشاهدو التليفزيون في البيوت يضجون بالضحك استمتاعا، وكان آخر سؤال في هذه الفقرة الهزلية وجهه له المذيع هو: لماذا لا تبقى معنا إلى آخر السهرة لتشاهد معنا بقية الفقرات؟ وكان جواب «الأمير» هو: لا أستطيع لأني لم استأذن «ماما» في السهر، وليس معي مفتاح قصر باكنجهام لأفتح لنفسي إذا عدت متأخرا! وضحكت بريطانيا سعيدة!

وفي يوم الاحتفال خرج موكب الملكة اليزابيث من قصر باكنجهام في الصباح، يتكون من عدة مركبات أثرية تجرها الخيول وتتقدمها المركبة التي تقل الملكة، وهي مركبة عمرها لا يقل عن 200 سنة، وقد ركبها من قبل كل ملوك وملكات بريطانيا في احتفالات التتويج والمناسبات الرسمية، وسار الموكب في طريق محدد من قصر باكنجهام إلى مقر البرلمان البريطاني حيث جرت مراسم الاحتفال، ثم عاد من الطريق نفسه إلى القصر. وعلى

الجانبين كانت تقف جموع البريطانيين والسياح لمشاهدة الموكب مبهورين بتقاليده ومراسمه.
وقد شاهدت موكب الملكة خلال رحلة العودة، فلفت نظري أنه رغم وجود أعداد كبيرة من الشباب البريطاني والسياح على الجانبين.. إلا أنهم في النهاية لا يصلون بأي حال من الأحوال إلى عشر عدد المتجمعين في ساحة أي مولد صغير، لأي قطب صوفي في قرية من قرى مصر، فليس هناك زحام بالمعنى الذي نعرفه. والبوليس البريطاني يسمح للناس بعبور الطريق من حين لآخر، وحين اقترب موكب الملكة لم يزد عن أن قال لمن يقفون في نهر الطريق: خلف الحاجز من فضلكم! فأخلوا الطريق ثم مرت الملكة أمامنا ترتدي تاجها وترفع يدها، وكلما مرت أمام مجموعة من الشباب صاحوا بغير انفعال كبير: هيه.. فتلوح لهم بيدها باسمة، وينتهى الأمر!
ثم مرت بعدها مركبة الملكة الأم وهي أم الملكة إليزابيث، وكانت شخصية محبوبة جدا في بريطانيا، ثم مركبات الأميرات وأزواجهن وبقية أعضاء الأسرة المالكة. أما ولي العهد الأمير تشارلز، فكان يمتطي صهوة جواد بملابس الحرس الملكي الشهيرة، ويتقدم مركبة الملكة إليزابيث مع فرسان الحرس.
أمضيت ساعتين واقفا مع صديق مصري وأسرته، إلى أن مر الموكب الملكي وبدأ المشاهدون ينصرفون.. وبدأنا نحن أيضا ننصرف في هدوء، فقفزت إلى ذهني فجأة صورة زحام الاحتفالات العامة في بلادنا، وذكريات طفولتي في مدينة دسوق التي يخنقها الزحام كل سنة، ليلة الاحتفال بالليلة الختامية لمولد سيدي إبراهيم الدسوقي، وتذكرت كيف كدت وأنا طفل صغير أن أهلك تحت أقدام الرجال في هذا الزحام، «وفرسان» مركز الشرطة يفسحون الطريق لموكب سعادة مدير المديرية الذي شرف المكان. وبالطريقة الوحيدة التي يفهمونها لإفساح الطريق وهي الضرب بعصى الخيرزان، عمالاً على بطال، في جموع الفلاحين فتهرول مفزوعه مخلية الطريق لموكب البيه المدير وتطأ في طريقها كل من يسقط على الأرض، وقد كنت أنا ذات مرة أحد هؤلاء الذين جرفهم زحام الحشر.
استرجعت هذه الصورة القديمة إلى مخيلتي فجأة، وقلت لصديقي ونحن في طريقنا إلى بيته: هذا الاحتفال ينقصه شيء جوهري لاتصلح الاحتفالات العامة إلا به!
فسألني ببراءة: ما هو؟
فقلت: الضرب بالعصى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ومهما! ..

دخلت قاعة الدراسة ذلك الصباح فأحسست بأن شيئاً ثقيلاً يخيم على جوها! وقبل أن أصل إلى مكتبي ناداني أحد الزملاء العرب وقال لي: إنه سمع من الإذاعة المصرية في الصباح الباكر أن رئيس تحرير الأهرام ومدير تحريره قد تعرضا لحادث سيارة في الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية، وأن مدير التحرير وسائق السيارة لقيا مصرعهما!

يا إلهي إنه الرجل الباسم المهذب الذي أرسلني إلى هذه الدورة وكان ينتظرني لأحدثه عن تجربتي فيها.. وأحسست بصدري يضيق وبالرغبة في الاختلاء بنفسي، فغادرت القاعة وعند مدخلها التقيت ببراون داخلا فاعتذرت له عن أنصرافي فنظر إليّ بعطف، وقال لي: لا بأس تجول قليلا في شوارع كارديف إلى أن تهدأ. وكان قد قرأ الخبر في صحيفة «الديلي تلجراف» ويعرف صلتي الشخصية بالراحل محمود عبد العزيز، ويعرفه أيضا لأنه كان أحد الدراسين السابقين بالمعهد وصديقا حميماً لمديره رولاندز.

خرجت إلى الشارع.. وتجولت قليلا ثم اشتريت ورقا وخطابا من أحد المحلات، ودخلت مشرب شاي في شارع سانت ماري.. وجلست أكتب رسالة لزوجتي، مازلت أذكر أول سطورها: «اليوم تلقيت نبأ وفاة المرحوم محمود عبد العزيز الرجل الذي أرسلني إلى هنا» وأحسست بألم شديد وصاحبتني صورته، وذكريات تعاملي معه خلال فترة عمله في الأهرام طوال يومي، فقد كان إنسانا مهذبا بكل معنى الكلمة. ومن هؤلاء الأشخاص الذين يشق عليهم أن يتفوهوا بكلمة نابية أو كلمة خارجة عن المألوف، وكان رقيقا مع الجميع وأمينا معهم.. وقد تولى منصب مدير التحرير في الأهرام في فترة عصيبة سياسيا وصحفيا فلعب دورا توفيقياً مهماً بين جميع الأطراف التي كانت تتصارع في ذلك الوقت للسيطرة على الأهرام.. ولم يشعر الكثيرون بأهمية هذا الدور، إلا بعد أن اختاره الله إلى جواره وغاب عن موقعه الهام في الأهرام.

وأنا أجتر ذكرياتي معه، تذكرت هذين البيتين للشاعر المرحوم محمود حسن إسماعيل، كان المرحوم الأديب عباس الأسواني يرويهما دائما ويترنم بهما لبلاغة كلمة محددة جاءت فيهما وإعجازها أما البيتان فهما:

لا أرفض الموت لكنى أسائله.. هل ذقت ما أنت بالإنسان فاعله.

تأتي بلا شبح تسقى بلا قدح.. وكل باب - ومهما - أنت داخله.

نعم لا نرفض الموت.. ومن يملك أن يرفضه، لكننا نسائله فعلا مع محمود حسن اسماعيل: هل ذقت ما أنت بالإنسان فاعله؟

إنني لا أريد أن أجتر أحزاني على الورق فليس هنا مجالها.. لكنني أقول فقط إني كثيراً ما رددت هذين البيتين في مناسبات أليمة حين فقدت بعد هذه

الدورة بسنوات شقيقي الأصغر، وكان شهما كريما مطبوعا على حب الناس ومساعدة الآخرين ولا يحمل ضغينة لأحد، ومن هؤلاء الأشخاص القلائل الذين لا يمكن أن يعرفهم أحد بغير أن يحمل لهم مشاعر الحب والصداقة والوفاء. وقد فقدته وأنا غائب عن مصر في رحلة اغتراب أخرى، فلم أودعه قبل الرحيل، رحمه الله.
ثم رددتهما أيضا حين فقدت شيئاً جوهرياً من نفسي، واختار الله إلى جواره شقيقي الأكبر - رحمه الله - وكان توءم حياتي وقريني في ملاعب الطفولة وزميل دراستي ورفيق صباي وصديق عمري، وقد شاءت لي الأقدار الحزينة أن ألتصق به في لحظاته الأخيرة وهو ينسحب بهدوء من عالمنا الرديء إلى العالم الأفضل، وقلبي ينسحب إلى عالم سحيق - رحمه الله - وبينهما فقدت الكثير والكثير من قلبي ومن حياتي ومن وجداني مع كل قريب وصديق، مضى إلى النهاية المحتومة.. ولن أجتر مرة أخرى أحزاني لكني سأقول فقط إن العبارة التي كان يطرب لها المرحوم عباس الأسواني في هذين البيتين هي: «ومهما» وهي عبارة عجيبة تحمل في حروفها الخمسة كل جبروت الموت وحتميته وتغني عن تأليف كتاب عن أنه لا شيء يحول دون وقوع القضاء حين يحين. وكان عباس الأسواني يردد ذلك مؤكدا عبقرية محمود حسن إسماعيل، ومن عجب أنه رحل عن الحياة فجأة وهو في الثانية والخمسين من العمر، وفي قمة توهجه الأدبي والإنساني. وبعد عودتي بأيام قليلة من هذه البعثة، ثم أصبحنا نرويها عنه بعد رحيله وغدا يرويها عنا آخرون.. وهكذا الحياة يا صديقي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمام فولتير

خلال فترة إقامتي في لندن في إجازة اليوبيل الفضي زرت معالم لندن وقصر وندسور على بعد أميال منها، وطفت بالأماكن التي طالما قرأت عنها وسمعت بها كحديقة هايد بارك «ركن الخطباء» وميدان الطرف الأغر «الترافلجار»، والمتحف الوطني للفن الذي يضم نفائس لا تقدر بمال، ومنها كل اللوحات الفنية الشهيرة التي طالما تمتعت برؤية صورها على بطاقات البريد وزرت متحف الشمع.. وأمضيت ساعة واقفا في طابور التذاكر حتى جاء دوري في الدخول، وتجولت بين قاعاته منبهرا.. فمررت على ما يحتويه من تماثيل لزعماء العالم السابقين والحاليين سريعا، ثم توقفت طويلا أمام تماثيل أعلام الفكر التي يضمها. يا إلهي إنني أقف أمام فولتير فأحس كأنه على وشك أن يرد عليّ تحيتي ويمد يده لمصافحتي.. إنه ضئيل الجسم طويل الأنف مجدور البشرة عيناه زرقاوتان، لكن عظام وجهه وذقنه تشي بقوة الشخصية.. هذه إذن هي الرأس التي أبدعت روائع الأدب الفرنسي والتراجم التاريخية والرسائل والكتابات الفلسفية والاجتماعية الجريئة، وصبت نار الغضب على التعصب الديني وشرور الظلم الاجتماعي. هذه هي اليد التي كتبت رواية «كانديد» في 3 أيام و «مأساة أوديب» و «الصغير الكبير» وكتبت أيضا «إن صناعتي هي أن أقول ما أعتقد» و «فكر ودع غيرك يفكر!» و «الله والحرية» وفي هذه العبارة الأخيرة تجتمع فلسفة فولتير كلها. استغرقني التأمل وأنا واقف أمام تمثال فولتير، فتذكرت فجأة رأي الفيلسوف الألماني شوبنهاور خلال انشغاله بتخليد ذكرى جوته، من أن العلماء والفلاسفة الذين يخدمون العالم برؤوسهم ينبغي أن تقام لهم تماثيل نصفية، أما السياسيون والقواد الذين يخدمون العالم بكيانهم كله فينبغي أن تقام لهم تماثيل كاملة! وتعجبت لفكرة شوبنهاور من أن السياسيين والقواد يخدمون العالم بكيانهم، اللهم إلا إذا كان يقصد أنهم يضربون «بالشلوت» أحيانا في سبيل الإنسانية!

انتهت الجولة في متحف الشمع بمشاهدة المشهد المجسم لمعركة «واترلو» بين القائد الفرنسي نابليون والقائد الإنجليزي ولنجتون، التي هزم فيها نابليون وتحطمت خلالها أسطورته.

وغادرت المتحف وليس في مخيلتي من صور العظماء والقواد الذين يضمهم سوى صورة هذا القصير الماكر الساخر الذي توقعت القابلة التي ولدته ألا يعيش أربعة أيام، فعاش ٨٤ عاما، كرس معظمها ليحطم ما بالعالم من ادعاء ونفاق، واختتم حياته بنكتة حين جاءه القس على فراش الموت ليسمع اعترافه فسأله بصوت ضعيف: من أرسلك إلى هنا أيها السيد!

فأجاب القس: أرسلني الله إليك يا سيد فولتير. فقال فولتير له: هكذا.. أين إذن أوراق اعتمادك! ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ضاحكا كما عاش طوال حياته

ضاحكا ساخرا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأطرش في الزفة!

الويلشيون سكان مقاطعة ويلز قوم دافئو المشاعر وأكثر حرارة من الإنجليز الأصليين، ولهم لغة خاصة يتكلمها العجائز إلى جانب الإنجليزية.. وتحرص بعض الأسر على تعليمها لصغارهم كما يتناقل النوبيون لغتهم غير المكتوبة هنا في مصر والسودان، ولهم أيضا إذاعة ومحطة تليفزيون تذيعان برامجهما المحلية من ويلز لعدة ساعات كل يوم.

وفي ويلز حزب محلي يطالب بالانفصال عن بريطانيا، وقيام دولة ويلشية مستقلة تتحالف مع بريطانيا لكنه حزب صغير لا تأثير له.

وذات يوم دعانا رولاندز لحضور مهرجان سنوي، يقام في مناسبة ويلشية محلية لم أعد أذكرها، فركبنا سيارة أتوبيس استأجرها لنا المعهد إلى مقر المهرجان على بعد أميال فوجدناه ساحة كساحة مولد السيد البدوي، تنتشر فيها الخيام التي تعرض الهدايا الويلشية.. وفي خيمة كالبالون كان الاحتفال الرئيسي، فجلسنا في المقدمة ننتظر بدء البرنامج فبدأ بالنشيد المحلي فلم نفهم منه كلمة واحدة لأنه بالويلشية.. ثم بدأت عروض الفن الشعبي وانتهت وجاء دور الخطباء، فتوالوا على الميكروفون يخطبون بحماس فائق ويشيرون بأيديهم بعصبية، وتتصاعد الدماء إلى وجوههم فتصبغها بالحمرة من شدة الأنفعال ونحن نتلفت حولنا في حيرة.. فالخطباء جميعاً يخطبون بالويلشية التي لا نعرف منها حرفاً واحدا.

وتلفت فوجدت براون ينظر مبتسما ابتسامته الساخرة، فسألته: ماذا يقولون؟ فأجاب بالابتسامة نفسها: لا أعرف.. لكنهم فيما أعتقد يطالبون باستقلال ويلز وبالانفصال عن بريطانيا! فقلت: تعرف الويلشية؟ فقال: لا.. إنها لغة ميتة منقرضة فلماذا أجهد نفسي في معرفتها، فقلت له: لماذا جئنا إلى هنا إذن! فقال باختصار: هذا هو السؤال.. لقد قلت لرولاندز إن هذه الزيارة لا تستحق عناء الانتقال إليها فالاحتفال لا يهم الصحفيين العرب في شيء والمتحدثون فيه يتحدثون بلغة لا يعرفونها.. وليست هناك ترجمة إنجليزية لما يقولون فلماذا يشهدونه.. ولكنه أصر على أن تذهبوا إليه، وعلى أن أرافقكم إلى هنا، وعلى حضور هذا الاحتفال الرئيسي بالذات. ولابد من الالتزام بالتعليمات. لهذا جئنا، قلت له: حسنا لقد عرفنا على الأقل أن في بريطانيا من لا يزالون يطالبون بالاستقلال التام أو الموت الزؤام، كما كان المصريون يهتفون في شوارع القاهرة في ثورة 1919.

وانصرفت عنه إلى تأمل الوجوه الويلشية المميزة التي تحضر الاحتفال في انتظار أن تنتهي الكلمات الحماسية لنسمع الغناء، فهو لغة عالمية لا تحتاج إلى مترجم لكن الخطب طالت.. والملل تضاعف وبدأ النوم يداعب عيوني، وكلما هممت بأن أستسلم له انتفضت مذعوراً على «شخطة» حماسية من

الخطيب فأجده مضرج الوجه بالانفعال، ثم أنظر حولي فأجد الحضور هادئين إلا من قلة صغيرة «تتجاوب» مع الخطيب في انفعالاته: وأثار ذلك تساؤلي فهمست لبراون بملاحظتي فقال لي: هؤلاء المتجاوبون هم ممن مازالوا يعرفون الويلشية ويتمسكون بها.. أما الآخرون الهادئون فهم ويلشيون فعلاً ولكنهم نسوا لغتهم القديمة.. ولا يفهمون المتحدث وإن كانوا يحاولون، ضحكت وقلت له: إنهم مثلنا إذن كالأطرش في الزفة، ثم رحت أشرح له معنى العبارة.. وأرددها بالعربية حتى حفظها.. وقال لي ضاحكاً: صحيح «نحن أطرش إن زفة» ([4])! في هذا المكان، هيا بنا منه وليفعل رولاندز ما يشاء! ونهض ضاحكاً ونحن وراءه فرحين بالإفراج عنا من هذا المعتقل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تشكّى لبيد!

أيامنا تمضي في حضور المحاضرات والتجول في شوارع كارديف وقضاء الأمسيات في البيت العالمي.. لكن لماذا أصبحت الأيام تمضي بطيئة هكذا؟ ولماذا أصبح الحزن الهادىء رفيقا دائما بلا سبب واضح والأعصاب هشة تستجيب لأي استفزاز؟ لقد تكفلت الأيام بعملية انتقاء طبيعية بين زملاء الدورة ورفاق البيت العالمي، فازدادت روابطي بعوني ومنى وسلوى ومرتضى وأحمد السوداني، وضعفت صلاتي بالرفيق وزميله والجماهيريين الثلاثة، وبيير وماريا وبقية نزلاء الإنترناشيونال هاوس، حتى لم أعد أبدأ أحدا منهم بتحية.

وظننت أنني وحدي الذي أعاني من هذه الحالة، لكني اكتشفت أن هذا أيضا هو حال عوني وسلوى، وأنه فيما أتصور عرض من أعراض «الهوم سكنس» أو مرض الحنين إلى الوطن، صحيح ما أعجب الإنسان! لقد سعيت إلى الذهاب إلى هذه الدورة بكل إصرار، ومن قبلها عاندني الحظ في بعثة مماثلة حزنت لضياعها مني بعد أن كانت أقرب إليّ من حبل الوريد، وكانت لدراسة الصحافة في المجر وكنت مرشحاً لها من نقابة الصحفيين وخضت من أجلها امتحانا شاقا في السفارة المجرية، استغرق وقت الإجابة التحريرية عن أسئلته حوالي 4 ساعات.. وكانت أسئلة تشمل معارف عديدة من تاريخ المجر إلى تاريخ المذاهب السياسية إلى فن الصحافة، وكان عدد المرشحين من نقابة الصحفيين لهذه الدورة ستة، والمطلوب اختيار اثنين منهم فجاء ترتيبي الثاني، وأعددت حقيبتي للسفر. وفي اللحظة الأخيرة رفضت جريدتي الموافقة على السفر، رغم أني كنت قد حصلت على موافقة مبدئية على التقدم للبعثة، وحين تقدمت بطلب إذن السفر قال المسؤول وقتها، وكأنه لم يسمع من قبل بأمر هذه البعثة: المجر؟ وهل في المجر صحافة لتدرسها.. لا.. لا أوافق. فكانت نهاية حلم البعثة بالنسبة لي وسافر التالي في الترتيب، وحزنت طويلاً لضياعها.

ثم مرت تحت الجسور مياه كثيرة حتى جاءتني فرصة هذه الدورة الدراسية فسعدت بها واعتبرتها تعويضا عن الدورة الأولى، وأقبلت عليها بكل همة.. لكن ما بال الفرحة قد هدأت والضحكة قد خمدت، وما بالي أمضي الساعات الطويلة خلف زجاج نافذة غرفتي أرقب شاطىء البحر وأسطح المنازل الحمراء صامتا.. أقرأ قليلاً.. وأسرح كثيرا.. وأنتظر أن يطرق بابي أحد من الأحباء ليخرجني من ضيقي.

أيكون حالي هذا هو ما عبر عنه أمير الشعراء أحمد شوقي، حين قال:

تشكى لبيد لطـول الحيـاة ولو لم تطل لتشكى القصر

أم يكون ما عبر عنه الشاعر حين قال:

يطلب الإنسان في الصيف الشتا فـإذا جـاء الصـيـف أنـكــره
ليس يرضى المرء حـالا واحـداً قتـل الإنسـان مـا أكـفــره

آه لو لم يكن القلب مثقلاً بالوحدة. لضحكت حين تذكرت بيت شوقي، كما كنت أفعل دائماً؛ لأني أتذكر معه تعليق الدكتور لويس عوض عليه في كتابه الذي أوحى إليّ بكتابة هذا الكتاب «يوميات طالب بعثة»؛ إذ يقول: فهمنا أن يتشكي لبيد لطول الحياة.. لكن كيف يتشكي القصر لو لم تطل؟ أي كيف يشكو بعد وفاته وبأي لغة؟ صحيح قتل الإنسان ما أكفره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وداعا.. بريطانيا!

مضت الأيام بطيئة أحياناً، سريعة في أحيان أخرى.. واقتربت الدورة الدراسية من نهايتها.. وتحدد الموعد الذي ستختتم فيه الدراسة في كارديف ووزع علينا رولاندز بيانا يحدد الخطوات الأخيرة من الدورة فإذا به يتكشف عن مفاجأة لم تكن مسك الختام.. فلقد كان النظام الذي يتبعه رولاندز في تنظيم هذه الدورات تطبيقا عمليًا للصورة الهزلية التي تروي أن رجلاً قد صنع «تورتة» جيدة الصنع أجهد نفسه في صنعها وأنفق على شراء مكوناتها بسخاء.. ثم رأى أن يوفر في تكاليفها بضعة قروش فرشها بالرمل بدلا من السكر وقدمها لضيوفه!

فلقد كان النظام الذي يتبعه هو أن يعلن اختتام الدورة الدراسية في كارديف، ثم ينظم انتقال الدارسين بالأتوبيس الخاص إلى محطة فيكتوريا في لندن.. وهناك يتركهم للأقدار حيث ينزل كل منهم في أي فندق صغير يختاره، وبعد ثلاثة أيام ينتقل إلى فندق «بلومز بري» ليقيم في ضيافة المعهد لمدة ليلتين أخريين استعدادا لمغادرة لندن، ولحضور حفل تسليم الشهادات في مقر إدارة المعهد في العاصمة البريطانية..

أما لماذا اختار هذا النظام فلكي يوفر تكاليف إقامة كل دارس في فندق «بلومز بري» لمدة هذه الليالي الثلاث.. معللاً ذلك بأن المعهد يدفع لكل دارس مبلغاً صغيرا مقابل الإقامة خلال هذه الفترة! وكان هذا النظام مثار شكوى الدارسين في كل الدورات السابقة.. ومثار انتقاد أساتذة المعهد أنفسهم. لكن رولاندز كان يتمسك به ويصر عليه في عناد غير مفهوم! وكان من تقاليد المعهد أن يعقد جلسة مناقشة في ختام المحاضرات، يحضرها رولاندز وأساتذة المعهد والدارسون.. ويبدأ رولاندز المناقشة طالبا سماع ملاحظات الدارسين وانتقاداتهم على برنامج الدورة، ولاحظت قبل بدء هذه الجلسة أن براون وفيرث يشاركان الدارسين امتعاضهم من تركهم في لندن لمدة ثلاثة أيام تحت رحمة القدر.. وأنهما يكادان يحرضان الدارسين على مناقشة رولاندز، والاحتجاج على هذا النظام خلال المناقشة.

وبدأت الجلسة وطلب رولاندز أن آراء الدارسين، فكانت معظم الآراء تدور حول ما يمكن أن نسميه بالخدمات المصاحبة للدراسة في الدورة كالشكوى من سوء الطعام في البيت العالمي.. والشكوى من عدم التزام المعهد باستضافة الدارسين في لندن خلال الأيام الأخيرة من إقامتهم فيها.. أما برنامج الدورة فلم يحظ التعليق عليه أو انتقاده بمساحة واسعة من الاهتمام لسبب بسيط، هو أننا كنا مهمومين فعلاً بالبحث عن فندق صغير في لندن.. ونخشى ألا نجد مكانا لنا خلال هذه الأيام الثلاثة قبل الانتقال إلى فندق «بلومز بري»، وكان حجة رولاندز في ذلك أن الفندق مشغول خلال هذه

الأيام، أما براون فلقد قال لنا سرا: إن هذا غير صحيح لكن رولاندز يحب دائما أن يوفر بضعة جنيهات، من تكاليف الإقامة ليثبت لإدارة المعهد حرصه على أموالها.
بعد جلسة المناقشة انصرفنا إلى البيت العالمي لنعد حقائبنا، وفي الصباح الباكر جاء رولاندز رغم سخونة المناقشة معه في الليلة السابقة، باسما مؤكدا لنا بطريقة عملية أن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، وأظن أنه أحس بشيء من الحرج فعلاً حين رآنا نتعثر في حقائبنا وقواميسنا وكتبنا.. وأدرك ساعتها كم كان من الأفضل لنا لو أقمنا في مكان واحد حتى موعد سفرنا، بدلاً من أن «ندوخ» في التنقل بين الفنادق الصغيرة ونحن نحمل كل هذه الأثقال، ونبحث لأنفسنا عن غرف خالية في قمة الموسم السياحي في لندن، الذي ساهم يوبيل الملكة إليزابيث في ازدهاره وتنشيطه.
وبروح رياضية مازلت أذكرها له، تقدم مني وحمل عني قاموسا ضخمًا.. وحقيبة صغيرة ليساعدني على ركوب الأتوبيس فشكرته بقلب خال من الموجِدة على هذه اللفتة الرقيقة.. وأسفت على أن حدة المناقشة بيني وبينه في جلسة الاستماع حول هذه النقطة بالذات كانت قد وصلت إلى درجة عالية، لكن هذه سمة واضحة من سمات العقل البريطاني والغربي بصفة عامة، وهي التفرقة بين الخلاف في الرأي ولو وصل إلى أقصى مداه.. والعلاقات الإنسانية المفترضة بين المختلفين في الرأي.
حملنا الأتوبيس إلى لندن، وكانت «منى» طالبة الوثائق والمكتبات قد سبقتنا إليها في مهمة علمية خاصة بها، فطلبنا منها أن تحجز لنا غرفتين في فندق صغير في وسط لندن، وانطلقنا إليه فوجدناه فندقا صغيرا من فنادق لندن التي تعمل بنظام «السرير والإفطار» ولا تقدم أية خدمات أخرى للنزلاء، ويديرها عادة موظف واحد أو موظفة واحدة.. ولكن «منى» لم تجد سوى غرفة واحدة خالية في هذا الفندق ونزلت فيها مع عوني وأقامت سلوى مع منى في فندق هندي صغير قريب، وأمضينا الأيام الثلاثة الخالية في زيارة معالم لندن وتناول الوجبات في المطاعم والمقاهي العربية في شارع «كوينز واي»، الذي كان أيامها مركزا لتجمع المصريين والعرب في لندن، قبل أن ينتقل هذا المركز الآن إلى شارع «إدجوار رود» في قلب العاصمة البريطانية.
وجاء يوم تسلم الشهادات فذهبنا في الموعد المحدد إلى إدارة المعهد.. ووجدنا رئيس مجلس الأمناء الذي يشرف على إدارة مؤسسة طومسون للأعمال غير التجارية في انتظارنا.. ووجدنا أيضا رولاندز ومصورا محترفا ينتظراننا وسلمنا رئيس مجلس الأمناء الشهادات.. ورفض رولاندز أن يمنح «ع» الدارس الجماهيري الذي كان يزونا من حين إلى آخر في كارديف شهادة التخرج، وسلمه بدلاً منها ورقة تفيد أنه حضر جانبا من المحاضرات، التي ألقيت خلال الدورة.

وعلمت فيما بعد أن براون - وقد كان أكثر الأساتذة اقترابا من «ع» وأكثرهم مداعبة له بل وأنسا بصحبته خلال الفترات، التي كان يأتي فيها إلى كارديف ـ هو نفسه الذي هدد بالاستقالة لو جامل رولاندز «ع» وأعطاه شهادة تخرج كبقية زملائه الذين أمضوا شهور الدورة في عمل جاد محاولين الاستفادة منها.
وبقدر أسفيي «ع» وللصدمة التي أحس بها حين أعطاه رولاندز هذا الخطاب وللمتاعب التي قد يتعرض لها بسبب ذلك.. خاصة وأن دراسته مدفوعة الأجر، على عكس بقية الدارسين، على قدر ما أعجبت بموقف براون الذي أثبت لنا فعلاً أنه رغم هذره ومناوشاته رجل جاد عادل يفرق بين العلاقة الشخصية والعمل.
وكان هذا الدرس في التزام الموضوعية عند تقييم جهود الآخرين؟ هو آخر الدروس التي تعلمتها خلال هذه الشهور، التي أمضيتها بعيداً على أهلي وأصحابي في بريطانيا، وما كان أكثر هذه الدروس وما كان أعمق تأثيرها في نفسي!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخاتمة

ليست هناك لحظات سعادة أو متعة يلقاها أحدنا في حياته، مثل تلك اللحظات التي يعيشها الكاتب، يسترجع فيها أحاسيس ما سجله في سابق الزمان، وكيف كانت ملامح أسلوب كتابته أو ما يسميه (تجربة شاب في الكتابة)..

وتواصلا مع عطائه الإنساني الثري ويقينا بأن النتاج الأدبي ما هو إلا سلسة متصلة الحلقات تسلم سابقتها لتاليها، وتمهد تاليتها لما يتلوها.. أثر الكاتب أن يعايشه قراؤه الأعزاء تلك اليوميات العزيزة على فؤاده والأثيرة إلى نفسه.. إنها لحظة شفافية جديرة بالتسجيل.. لم يبخل المؤلف بأن نقاسمه إحساسه بها... من خلال بانوراما جميلة بها عشرون لقطة رائعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سائح في دنيا الله

إن كتابي هذا ليس كتابا في أدب الرحلات بقدر ما هو كتاب تأملات في أحوال البشر في كل مكان.. يحمل ملامح من حيرتي الأبدية وتطلعي القديم منذ الصغر لأن أعرف العالم من حولي ابتداء من عالمي المحدود في سن الطفولة.. إلى دنيا الله الواسعة التي خرجت إليها فيما بعد، وأدركت أننا لم نكتشف منها حتى الآن سوى كوكب الأرض الصغير.. الذي لا يعدو أن يكون نقطة صغيرة كرأس الدبوس.. في بحر الكون الفسيح.. وفي كل سياحة لي في المكان أو الزمان.. أو بحر المعرفة تتردد في أعماقي دائما كلمة الإمام علي بن أبي طالب: (آه من قلة الزاد.. وبُعد السفر. ووحشة الطريق!!

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

هذا الكتاب 5

مقدمة الطبعة الأولى 6

قبل البداية! 7

في الطريق! 11

في البيت العالمي 14

وبدأت الدراسة 18

موقعة كارديف 20

غرام الرفيق 22

ودوري.. يا دنيا! 24

شخير.. في الأوبرا 27

الفاتنة الصغيرة! 29

كاباكا () الأول! 32

المغامرون الخمسة! 35

البطاقة المسحورة! 38

اليوبيل الناقص! 40

ومهما! 42 ..

أمام فولتير 44

الأطرش في الزفة! 46

تشكّى لبيد! 48

وداعا.. بريطانيا! 50

الخاتمة 53

سائح في دنيا الله 54

الفهرس: 56

Notes

[←1] ممثلة فرنسية كانت مشهورة في الستينيات

[←2]

بأسعار عام 1977

[3←]
كاباكا الأول تعبير ابتكره الكاتب المسرحي الأستاذ على سالم في إحدى مسرحياته للإشارة إلى الحاكم الأفريقي الفاشي، الذي يصل إلى مقعد الحكم بالانقلاب العسكري

إن: كلمة إنجليزية بمعنى في [4←]